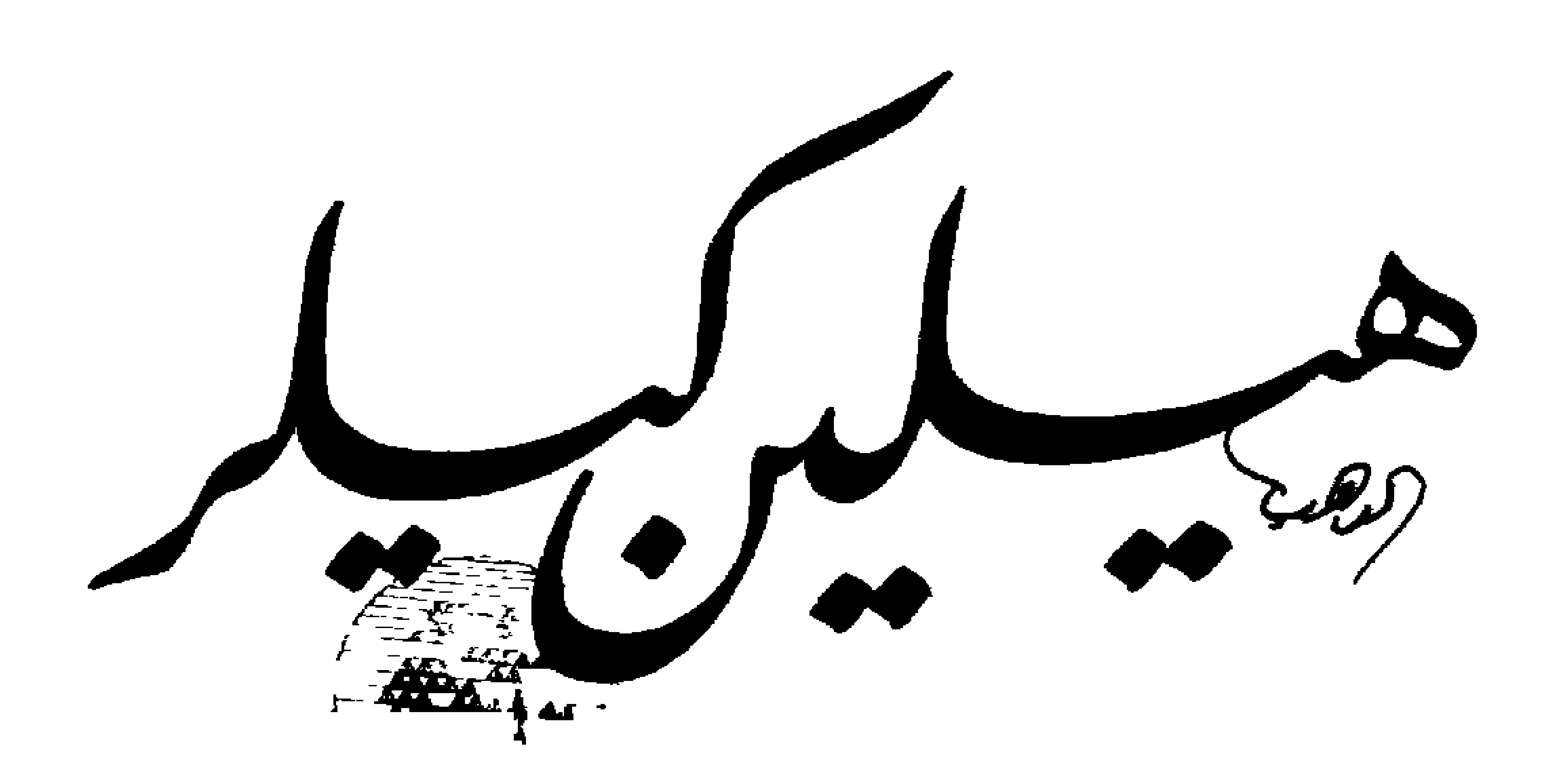

عظماء التاريخ
هيلين
كيلر
Bibliotheca Alexandrina
00118266

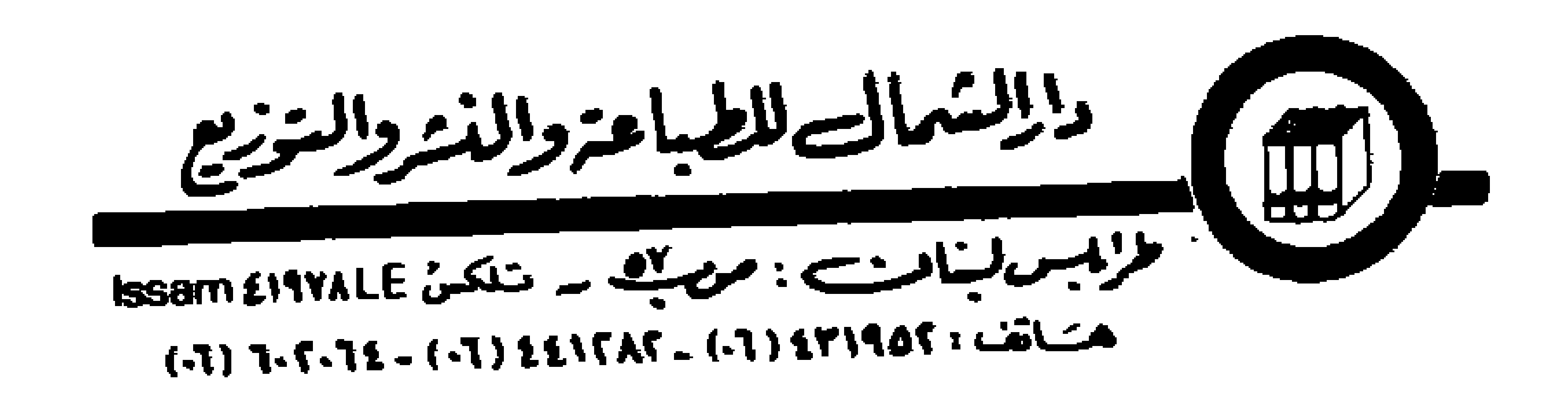
ہیلن کیلر

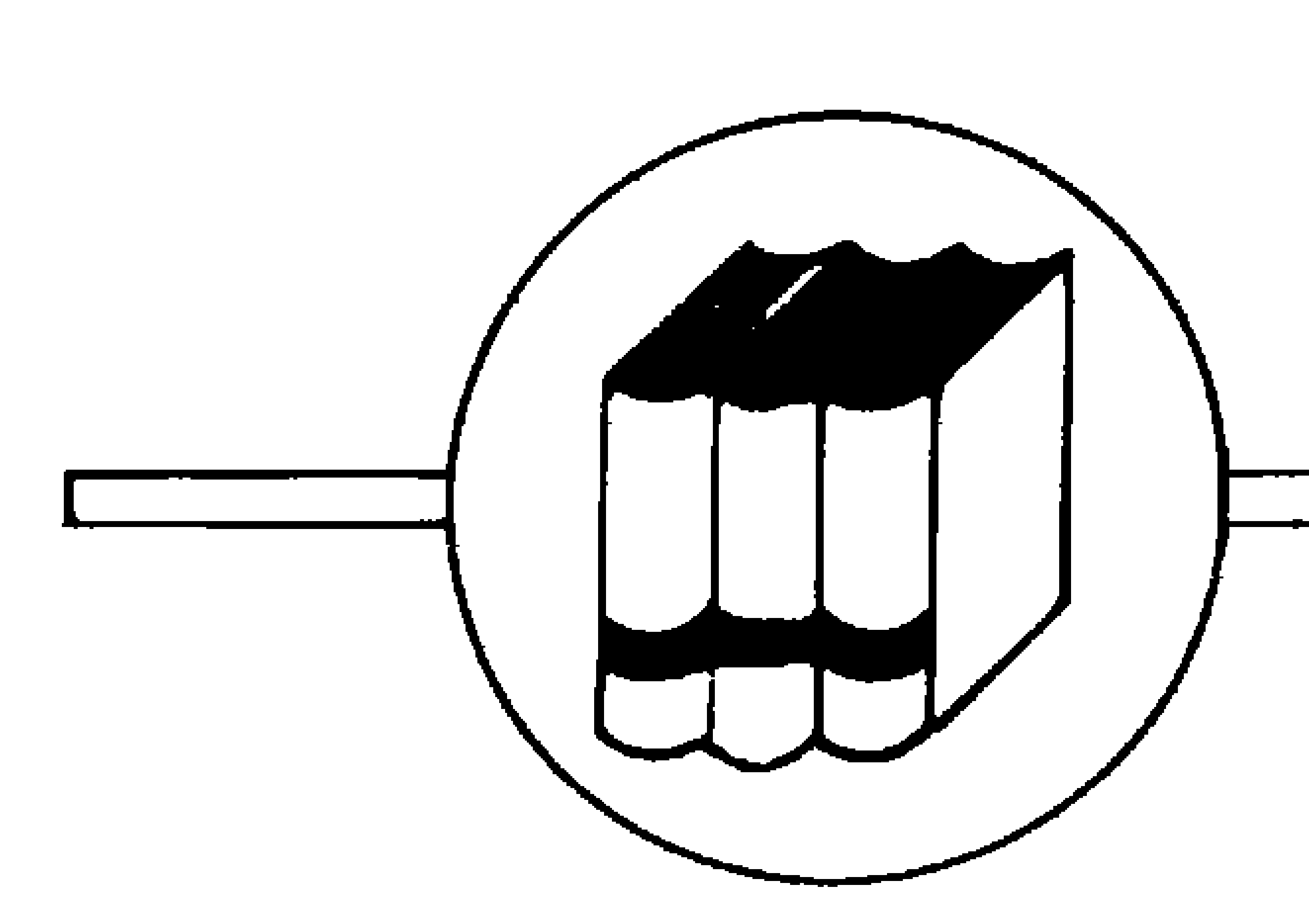
عظماء التاريخ



إعداد

سيف الدين الخطيب





دار الشمال

للطباعة والنشر والتوزيع

طرابلس لبنان

ص.ب ٥٧ - هاتف: ٠٦/٤٣١٩٥٢ - ٠٦/٦٠٢٠٦٤

تلكس Issam ٤١٩٧٨ LE

الطبعة الأولى

مقدمة

سيرة حياة « هيلين كيلر » ، ليستْ مجرَّدَ حكاية تَروي لنا قصّة امرأةٍ عظيمةٍ من عظماء الماضي والحاضر والمستقبل ، بل هي قصّة تَحكي عن عظمة الإنسان في وقوفه وصموده أمام تيّارات مختلفة من تيّارات الحياة الصعبة الشاقة !

و « كيلر » هنا تُجسِّد عظمةَ هذا الإنسان في طموحه وآماله ، والتغلُّب على عقبات الحياة التي تعترضُ سبلَ تقدُّمه ونجاحه !

فهي لا تهوي أمامَ ضربةٍ قاسيةٍ من ضرَبات الأيام ، ولا هي تنحني لمشيئة الطبيعة التي سَلَبَتْها أعزَّ ما يتمتّع به الإنسان من نعمة السّمع والبصر ! بل تَقِفُ في صلابةٍ وتحدٍّ ، وبكلّ ما بقي لديها من حواس شِبْهَ معطّلة، لتقودَ معركةَ الحياةِ وتنتصر!

استمدّتْ من ضعفها قوّة..ومن مرضها عنفواناً وصلابة.. وكافحتْ . وناضلتْ ، وعملتْ كلّ ما في وسعها لتكون شيئاً ، بل وأشياء ، وحتى لا تكون كمّاً مهملاً في أعداد البشر الذين رُزئوا بالمآسي والمصائب .. واستسلموا !

كانت تدرك بفلسفة الحياة المبكّرة عندها ، أنها إنما جاءت الحياةَ لتعيش . وإنْ أفقدتْها الحياةُ أمضى سلاح ، فهي ما زالت قادرةً على استخدامِ سلاحٍ آخر يعوّض السلاحَ الذي فُقد ..

وهكذا تحقّقت المعجزة ، وظَفِرتْ بالأماني ، وقهرتْ أشواكَ الحياة ، وحوّلتْ هزائمها إلى انتصارات .. وكان لها ما أرادت في تحقيق الذات ، وبناء ما تداعى من أركان النفس والجسد ..

إرادةُ العمياء والصمّاء ، تراجعتْ أمامها غزواتُ الفتك والتدمير للطبيعة التي قستْ وما رحِمت .. واندحر الظلامُ الحقيقي في داخل الانسان ، أمام قوّةِ الصبر والاحتمال !!

قارئي العزيز :

لنبدأ الآن سردَ قصّةِ حيـاة هذه المرأة المعجزة ، والتي ما زالت على قيد الحياة، لتقفَ بنفسك على حقيقة الجهاد الطويل وقوّة العزيمة والشكيمة الـتي اتّسمتْ بها نفسية هذه المرأة الـتي أصابها العمى والصّمم وهي في مراحل عمرها الأولى من الطفولة، ومع ذلك لم تيأسْ ، ولم تستسلمْ !!

وسأحاولُ قدر الامكان أن ألمسَ الجوانبَ الهامّة من حياة هذه الانسانـة الرائعة الجهاد والبطولة ، وأن أضعَ بعضَ التعليقات على ما يستدعي من مراحل حياتها ، وفصول مأساتها ، وذلك من خلال مذكراتها التي كتبتْها لتكون عظةً وعبرةً لكل من ألمّ به اليأس ، وحاق به القنوط ، وحلّت به المكاره ..

سيف الدين يونس الخطيب

مولد هيلين كيلر
مداهمة المرض
عالم الظلام
حب السيطرة على رفاق الطفولة
الأخت الجديدة

مولد هيلين كيلر :

وُلدتْ « هيلين كيلر » في عـام ١٨٨٠ ، في بيت متـواضع صغير يقع في إحدى المناطق الريفية الجميـــلة ، المليئة بالبساتين والأشجار والطيور ، واعتبرتْ أنّ مجيئَها إلى الحياة يُعَدُّ بمثابة انتصار لها وللعائلة .. وهي هنا تقول في مذكراتها بهذا الصدد : « وانتصرتُ كما ينتصر دائماً أوّلُ طفلٍ في العائلة » !

ولا ندري هنا ما الذي كانت تقصده أو تعنيه بهذا التعبير؟ هل هو انتصار الحياة على العدم في مجيئها إلى هـذا العالم ؟ أم هي اعتبرتْ أنّ ميلادَ أوّل طفـــل لأيّ زوجين ، يُعطي إشارة المرور لمواكب ميلادات أخرى من الأطفال يُرسِّخُ من وشائج الرِّباط بين الوالدين ، ويُضفي عليهما هذه الصفة بعد صفة الزوج والزوجة ؟

والذي لا شكّ فيـه أنها كانت تَخفي في هذا التعبـير بعض

المعاني الفلسفية التي تحملها كلمة انتصار في هذا الاطار ..

وكالعادة عند ميلاد الطفل ، طفقتْ العائلة في البحث عن الاسم المناسب .. وتمّ الاتفاق على تسميتها بالاسم الذي اختارته لها والدتُها : « هيلين » .

وهيلين هذه لم تكن كبقيّة الأطفال في السُّلوك والتصرُّف، بل دلّت على نضوج مبكّر ، وشخصية فريدة ، وعزم وتصميم.

وبرز هذا النبوغ عندما تمكّنتْ من النطق بكلمة « شاي » وهي في شهرها السادس من العمر ، ومن ثم محاولتها ونجاحها في المشي والسير .. وفي هذا يحدّثنا أصدقاؤها الكبار الذين رافقوا حياتها الأولى عن كثير من الميّزات والمواهب التي لم تكن لغيرها من سائر الأطفال في عمرها . كانت تُجيد المجاراة والتقليد ، سريعة الخاطر والبديهة ، فما أن تقع عيناها على شيء حتى تقلّده بنجاح وسهولة ..

كانت تختار لنفسها الفساتين الطويلة التي لا تتناسب مع عمرها الصغير ، وتلبسها لتبدو أكبر سنّاً ، وهي بالفعل كانت

تريدُ أن تظهرَ أكبرَ سنّاً ، لأنها كانت أكبر عقلاً ، وهي ترغب في أن يتناسب الفستانُ مع رجاحة العقل ، وإن كان الجسدُ الصغير مخالفاً لهذا !

لم تكن هيلين تسعى في حياة طفولتها إلى شيء أكثر من سَعْيها إلى الانطلاق في أحضان الطبيعة . ولم تكن بحاجة إلى أكثر من هذه السعادة التي تستمدُّها في الوقت الذي تمضيه مع الأشجار والأزهار والشمس .. فكلُّ سبلِ السعادة الأخرى متوفرة لها بكثرة في البيت، وبين والدين كريمين عطوفَين ، أدخلتْ مباهجَ الفرح والسرور على قلبيهما حين أطلّت عليهما من الغيب ! فأرادا أن يبادلاها السرور بسرور ، ويقدّما لها مما جاءتْ به وأعطتْ ..

كانت تريدُ أن تتعلّم شيئاً من الطبيعة ، وتختزن في ذهنها بعضَ الصور والرسوم ، وكأنها كانت تعرفُ بحسٍّ خفيٍّ أنها ستفقد هذه الرؤى يوماً ما ! لذا ، فهي تستعدُّ لحرمان الليل الطويل من الآن ، و تعِدُّ مخزونَ الأيام الصعبة !

مداهمة المرض :

لم تدمْ سعادتُها طويلاً ، فقد كان هناك شيء مخبَّأ لها بين سطور قَدَرها الظالم العاتي .. لم تنعمْ بهذه السعادة التي ملأت نفسَها وروحها بكلّ ما يصبو إليه الانسان من عطاء الحياة السخية الكريمة . لقد كان عمرُ السعادة قصيراً ، وقصيراً جداً لطفلة لم تتعدَّ العامين من العمر .. وهي هنا تقول في مذكراتها :

« ربيع قصير واحد تملأه أغاني الطيور ، وصيف واحد سخيٌّ بالفاكهة والورود، وخريفٌ ما أجملَ لونَه الأحمر الذهبي! وسرعان ما مرّت هذه الفصول وخلّفت ذكرياتها عند أقدام طفلةٍ متلهّفةٍ مسرورة » .

بهذه الكلمات عبَّرت عن مأساتها ، ونهاية فصل السعادة القصير من فصول حياتها الطويلة !

ففي شهر شباط من عام ١٨٨٢ ، نزلَ عليها المرضُ فجأةً

ودون مقدّمات ، فأغمضَ عينيها ، وأغلـق أُذنيها ، وأسلمها إلى حالة من اللّاوعي الشديد ..

لم تكــن هيلين تشكو شيئاً من قبل ، بل كانت في كامل صحتها وعافيَتها حـين داهمها المرض ! وظنَّ الجميـعُ ، بما فيهم الطبيب ، أنّ حظّها في الشفاء ، بـل في الحياة ، قليل . لكـنّ القدرَ عاد فتـدخّل مرّةً أخرى في تصريف شؤون الحيــاة ، وقضى على كلّ ظنٍّ واعتقـاد لدى الذين قطعوا الأمـلَ والرجاء في إمكانيَة العيش والشفاء . فقد أفاقتْ هيلين ذاتَ صباح، وقد استعادتْ وعيَهـا وحيويّتها . وابتهجَ الوالدان ، وسُرّا كثـيراً ظنّاً منهما بأنّ كلَّ شيء قد انتهى ، وأنّ الخطرَ قد زال وأسدلَ ستارَه على نهاية سعيدة .. ولكــنّ هذين الوالدين ، أو أحداً آخر غيرهما ، لم يكن يدري أو يعلم بأنهـا سوف لن ترى النّور أو تسمع بعد الآن . وأنّ المرضَ الذي ذهب ، إنمــا أذهبَ البصرَ والسمعَ ورحل بهما عن هيلين .

يا للكارثة ! فإنّ المصيبةَ الكبرى التي حلّت بها كانت أكبر

وأعظم من أن يتحمّلها قلبُها الصغير ! ولولا العطف الكبير الذي شملتها به أُمها عند المرض ، لكان لها وضعٌ آخر .

لقد تمكّنتْ والدتُها بهذا العطف أن تقضيَ على جانب كبير من حالة اليأس والألم التي انتابت نفسَ هذه الصغيرة في صدمتها الكبيرة !

نعم ، لقد زال المرض ، ولكنه خلّف وراءه آثاراً قبيحة لاسعة ..

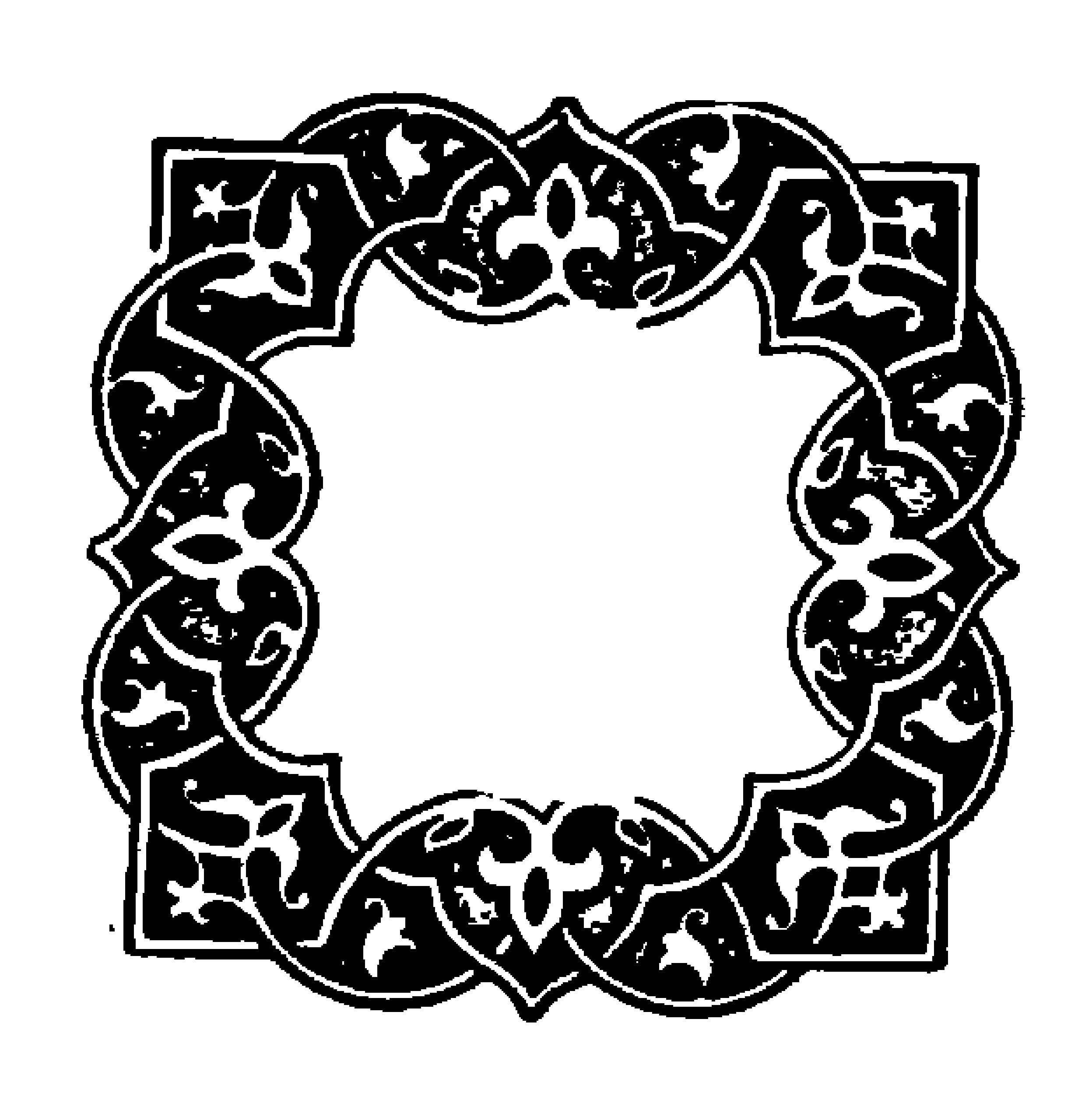
وتعاودها الذكريات .. والأسى .. والألم ! كيف كانت .. وكيف أصبحت..بالأمس القريب كانت ترى كلَّ شيء، وتسمع كلَّ شيء .. واليوم هي محرومة من النــــور والسمع .. بالأمس نامت على ضَوء النور .. واليـوم استيقظت على ظلامٍ يَحِفُّ بهـا من كلِّ جانب .. إنه الكابوس .. إنه الحلم المزعج ..

ولكنها الحقيقة ، الحقيقـة الجارحة المؤلمة .. الحقيقة التي ذهبتْ ببصرها وسمعها ، وتركتْ حياتها فريسةً سهلةً لمطامع

الدهر والأيام .. أوَتقضي هذه الحقيقـة المرّة على آمالها وتطلّعاتها في الحياة ؟! أم تراها هي تقضي على آمـال هذا الدهر الخؤون في اصطيادها والتهامها وسط صراع طويل من المعارك غير المتكافئة؟

أيّهما يُهزم ، وأيهما يَنتصر ؟! هـذا ما سيجيب عليه فصلُ حياتها ما بعد المرض ..

وبدأتْ معركةُ الظلام .. وبـــدأت تتعوّد على السكون والظلمة ، وحياة الليـل الدائم ، والصمت المستمر ، حتى تألفَ هذا الواقع الذي لا مفرّ منه ..



عـالم الظـلام :

لم تعدْ هيلين تذكـر شيئاً مما حدث خلال الشهر الأول الذي أعقب مرضها . فكـلّ ما كانت تذكره أنها كانت تجلس فوق ركبتيْ والدتها ، أو تتعلّق بطرف ثوبها فيما كانت تقـوم بأعمالها المنزلية .. كانت تتحسّس الأشياء وتلمسها، وقد اعتادت على هذه الحركات ، وتعلّمت منها الكثير .

ولكنها شعرت مؤخراً أنها بحاجة إلى أكثر مما وصلت إليه .. شعرت بحاجتها إلى الاتصال مع الآخرين ..

ولكن كيف يتم هذا ويحدث ؟!

لا بدّ من طريقة ومعها الحل ..

وتمّ لها ما أرادت ، واهتدت إلى الطريقة الـتي تُوصلها بالآخرين وإلى قضاء بعض الوقت معهم ، كماتوسّع دائرة معارفها.

بدأتْ تقوم ببعض الاشارات ، ووضعتْ لنفسها قاموساً خاصاً تسترشد بـه في لغة التعامل والتخاطب . فهزّةٌ معيّنـةٌ من الرأس كانت تعني عنـدها « لا » ، وحركةٌ أخرى كانت تعني « نعم » ، وجذبةٌ من اليـد نحوها عنَتْ « تقــدَّم » ، ودفعةٌ إلى الوراء « إذهب » ، وحين كانت تحتاج إلى الخبز ، كانت تقلّد عمليــة تقطيعه ودهنه بالزبدة .

لقــد نجحتْ في اختراع لغة يمكنُ أن تتعاملَ بها مـع الآخرين .. وزاد في هذا النجاح ما مكّنتها أُمُّها من فهم لأشياء كثيرة . وهي تعترف بهذا وتقـول : « الحقيقة إنني أدين إلى حكمتها المحبوبة بكلّ ما هو مشرق خيِّر في ليلي الطويـل المظلم .. فما أطيبَ الوالدات » .

وبقيتْ هيلين هكذا تتعـلّم بطريقتها الخاصة ، وتزيــد جعبتها من الفهم والادراك ، حتى بلغت الخامسة من العمر . حين خطت خطوةً جديدة ، بـدأتْ معها تتعلّم كيف ترتّب الملابسَ المغسولة ، وتضعها في مكانها الصحيح . كما بــدأت تميِّز ملابسها

الخاصة من بين ملابس العائلة .

وأكثر من ذلك ، توصّلت عن طريقة اللمس والتحسّس للملابس التي ترتديها والدتها وشقيقتها إلى معرفة ما إذا كانت هذه الملابس هي ملابس للزيارات والخروج، أم هي للبقاء في المنزل.

وكثيراً ما كانت تُلِحُّ على والدتها عندما تعرف أنها تلبس للخروج بأن تأخذها معها ..

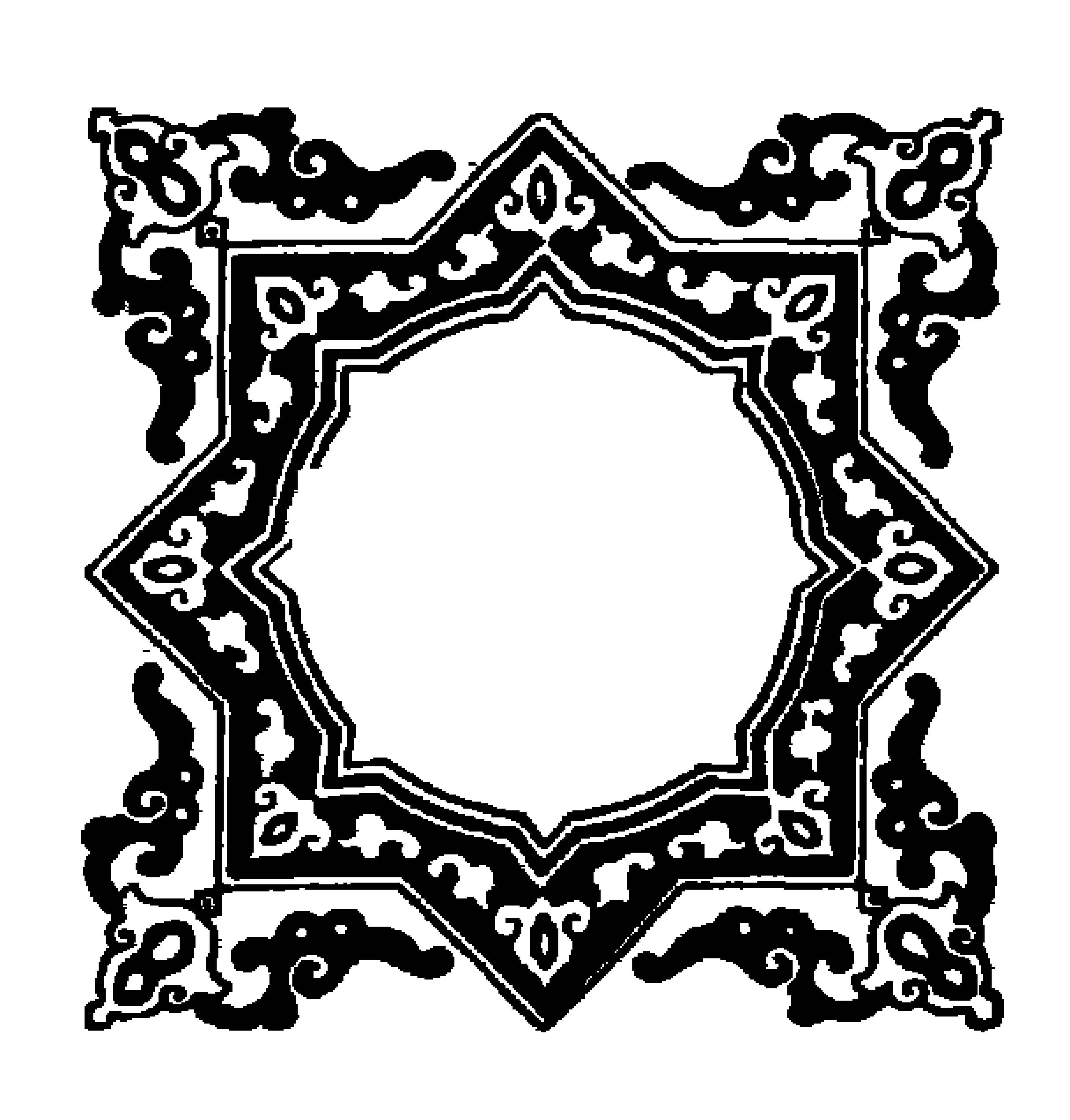
وعندما كان الضيوف يأتون لزيارتهم ، كانت تجد فرحاً في استدعاء والدتها لها لتجلس معهم . ولم تكن تجد حرجاً في مؤانسة هؤلاء الضيوف سوى ما حصل معها ذات مرة ، وقد ترك أثراً سيئاً في نفسها . وهي تذكره هنا على هذا النحو :

« حضر ذات يوم بعض الضيوف لزيارة والدتي . وقد شعرتُ بهذا عندما أغلقَ الباب ، بالاضافة إلى أصوات أخرى تخيّلتُها ، وهي تدلُّ على وصولهم . فأسرعتُ إلى الطابق العلوي لأفكّر في اللباس الذي يجب ارتداؤه لمثل هذه المناسبة. وهناك

وضعتُ الزيت على شعري ، وغطّيتُ وجهي بالبودرة ، وأنا واقفة أمام المرآة . ومن ثمّ أثبتُّ الحجابَ فوق رأسي بالمقلوب، حتى أنه غطّى وجهي وانسدل فوق منكبَي . وبلباسي هذا نزلتُ أساعدُ والدتي في خدمة الضيوف .. وأتخيّل الآن همهمة في تلك الغرفة .. ربما كانت ضحكاً . والواقع أنـــني لا أذكر تماماً متى اكتشفتُ أنني أختلفُ عن الآخرين . لكنني كنتُ أعرفه قبل حضور أستاذتي على كل حال . يومذاك شعرتُ أنّ والدتي وأصدقائي لا يستعملون الإشارات كما أستعملُها أنا حين يرغبون في إتمامِ عملٍ ما : إنهم يحرّكون شفاهَهم . أتراهم يعملون بهذه الطريقة ؟ » .

ولربّما هذه القصة التي روتْها ، فجّرتْ في نفسها الأحزان ، وأثارت السُّخط والغضب . فقد حاولت أن تحرّك شفتيها بعد أن لمستْ شفاهَ شخصَين يتحدّثان، ولكن محاولتها باءت بالفشل، وهذا ما زاد في غضبها ، وأشعلَ ثورةَ النفس عندها ، فأخذت تركلُ الهواء وتبكي حتى خارت قواها الجسدية .

كانت تُدرك أنّ هذا الذي تفعله سيّىء وبغيض ويسبّبُ الألم والأذى للآخرين ، ولا سيّما عندما كانت تركلُ ممرّضتها « إلّا » . وعندما تهدأ ثورةُ انفعالاتها ، كانت تشـــعرُ بالأسى العميق لما سبّبته من ضيق وألم لمن حولها . ولكن هذا الشعور ما كان ليمنعها من معاودة الكرّة في هـذا التصرّف السيّىء حين تفشل في شيء !..



حب السيطرة على رفاق الطفولة :

لم تجدْ هيلين ما تنفّس به عن كربها واستيائها من العـــالم والحياة ـ وهو عامل نفسي ـ سوى حبّها وميلها نحو السيطرة على من تعاشرهم من الأطفال . ولم يكنْ لديها سوى رفيقة واحدة ، هي ابنة طباخهم : فتاة زنجيّة كانت تصدرُ لها الأوامر عن طريق الإشارات ، وتجد لذة وسروراً حين كانت تنفّذ هذه الأوامر . ونادراً ما كانت رفيقتُها « مرتا » تعصي لها أمراً ، بل جميع مطالبها كانت تُلبّى على الدوام . ولأن « مرتـــا » كانت تخشى الضرب والتشابك بالأيدي ، فهي كانت تطيع وتصبر !..

وتتحدّث هيلين عن الوقت الطويل الذي كانت تمضيه مـع مرتا في المطبخ للمساعدة في تحضير الطعام وعلف الدجاج الذي كان يلتقط الطعام من بـين يديها دون خوف أو وجل .. وعـن سرورها واغتباطها في التقاط بيض الطيور من العش . وكذلك

في تردُّدها إلى مستودع الحبوب ، والاسطبل ، والفناء الذي تحلب فيه البقر كلَّ صباح .

ومن أحبِّ الأشياء السارَّة لنفسها ، ما كان يسبق عيد الميلاد من استعدادات وتحضير للمناسبة . لقد كانت تجهلُ ما تَعنيه هذه الاستعدادات، لكنها تُسرُّ وتستمتع بالروائح الحلوة التي تنبعث في البيت ، وبالقطع اللذيذة الطعم والمذاق التي كانت تُقدَّمُ لها ولمرتا لابقائهما هادئتَين .

ولم يكن فضولها كبيراً بالنسبة إلى هدايا العيد ، ولم تكن تستيقظ باكراً لمعرفة ما أحضره لها والدها من الهدايا .

كانت مولعةً بالقيام ببعض الألعاب والخدع الصبيانيّة ، وكذلك كانت رفيقتها مرتا .

وتتحدّث هنا عن أحد أيام تموز الحارّة ، والوقت الذي قضته مع مرتا في التسلية واللعب على درجات البيت ، بشيء من الألم والغصّة والحزن الدفين في القلب والنفس ، رغم ما كانت

تدّعيه من فرح وسرور لهذه الذكريات ، فتقول :

« في أحد أيام تموز الحارّة كنتَ ترى فتاتَين صغيرتَين جالستَين على درجات البيت الأمامية. كانت إحداهما سوداء ذات شعر كثيف ، أماالأخرى فكانت بيضاء ذات ضفائر ذهبية طويلة . وكانت الزنجية في السادسة من عمرها ، أما الأخرى فتصغرها بسنتين أو ثلاث . وكانت الفتاة الصغرى عمياء ـ وهذه أنا ـ وأما الأخرى فكانت مبصرة ـ وهذه مرتا ـ » .

وهذا الوصف بين عمياء ومبصرة يبيِّن ما كان يعتمل في صدرها من ألم وحزن عميق . فهي ترى أنّ مفارقات القدر قد جمعتْ بين نقيضين منأهل الحياة: بين مَن تبصر ومَن لا تبصر.. بين من ترى النور ، ومن لا تراه .. بل بين النور والظلام .. الحياة والموت !.. الموت البطيء المتحرّك المتصل مع أهل الحياة المعافِين يَستمدُّ منهم قوّة الأنفاس والبقاء!

وبسخرية وتهكُّم تَذكرُ هيلين حادثةً بسيطةً وقعتْ لها مع مرتا . وهي إنْ دلّتْ على شيء فإنما على كونها عمياء فقدتْ

رؤية الأشياء التي يمكن أن تتسبّب لها في القباحة والتشويه وقصّ الشعر الأشقر الجميل . فتقول :

« وعلى الدرج كانت الفتاتان مشغولتين باقتطاع بعض الصور من الورق . ثم تحوّلنا إلى قص أربطة أحذيتنا واللعب ببعض أوراق النباتات . ومن ثم حوّلتُ انتباهي إلى شعر مرتا أتسلّى في قصه ، وعملت مرتا بالمثل فقامت بقصّ إحدى ضفائري ، وكنت أضحك .. ولو لم تظهر والدتي في الوقت المناسب لإنقاذ ما تبقّى من ضفائري لكانت مرتا قد قضتْ عليها بأكملها » .

أما رفيقها الثاني فقد كان كلبُها الصيّاد « بل » . كان كلباً خاملاً كسولاً يُحبُّ النوم دائماً بقرب المدفئة بدلاً من اللعب معها . وكانت تحاول أن توقظَ فيه الحركة والنشاط كي تجعله يلعب معها ويؤانسها في وحدتها ووحشتها حين لا تكون مرتا برفقتها . وعبثاً حاولت أن تعلّمه لغة الإشارات ، فهو لم يكن يهتم بذلك . ولذا ، كثيراً ما كان ينتهي هذا الفشل إلى صورة معركة .. ولكنها معركة من جانب واحد .. من جانبها !

وتسترسلُ هيلين في الحديث عن بعض أحداث السنوات التي علِقت في ذهنها ، وكانت أكثر وضوحاً من غيرها في سن الطفولة . وهي هنا تروي لنا حادثة النار التي كادت تُودي بحياتها لولا تدخّل إحدى الخادمات ، فتقول :

« تبلَّلتْ منشفتي ذات يوم ، فقمتُ بوضعها أمام نار المدفئة في غرفة الجلوس كي تجفّ المنشفة بسرعة ، كما تهيَّأ لي.. فاقتربتُ أكثر من المدفأة .. ويبدو أنّ النار أصابت طرفها ، فاشتعلت ، وحاصرني اللهب ، حتى أنّ ملابسي بدأت تشتعل بعد لحظة واحدة . فماذا أفعل ؟! لقد رحتُ أصرخ من الرُّعب . وجلب صياحي انتباه إحدى الخادمات ، فحضرتْ مسرعة لإنقاذي . ومن حسن الحظ أنني لم أَصبْ بحروق خطيرة في ذلك اليوم » .

وهذه حادثة أخرى ترويها لنا هيلين ، يتبيَّن من خلالها مدى النقمة العارمة على هذا العالم الذي جاء بها صاحبة عاهات ، وغير مكتملة الصحة والحواس مثل سائر الخلق! حتى بلغتْ بها النقمة حدّاً أرادت أن تصيبَ بها أعزّ الناس لديها وهي والدتها.

فاقرأ ما تقول عن هذه الحادثة :

« في حوالي هذا الوقت اكتشفتُ طريقة استعمال المفتاح. وبينما كانت والدتي موجودة داخل مخزن الأطعمة القريب من المطبخ ذات صباح ، قمتُ من جانبي بإقفال المخزن وهي في الداخل . وقد بقيتْ هناك طيلة ثلاث ساعات ، وهي تواصل الطرق على الباب ، إلى أن جاء الخدم من قسم آخر من البيت وأخرجوها . وكنت أنا أثناء ذلك أجلسُ على درج البيت مسرورة بفعلتي هذه ، ويزداد سروري كلما أحسستُ بقوّة الطرق على الباب » .

الأخت الجــديدة :

كان عمر هيلين خمس سنوات ، عندما انتقلتْ مـع العائلة إلى بيت كبير جديد ..

وفي هذا البيت أطلّ طفلٌ جديد .. شقيقتها « ميلدرد ».. فارتفع عدد أفراد الأسرة إلى خمسة . لم تكــن هيلين مسرورة بهذا القادم الجديد، لأنها لن تُصبح المدلّلة الوحيدة ، وستقاسمها هذه الأخت حبّ والدَيها..لذا، فقد استقبلت مجيئَها بالكراهية والاستياء ، وناصبتْها العداء ، وهو أمر طبيعي عنـد الأطفال . فقد جلست ميلدرد على ركبتيْ والدتها حيث كانت تجلسُ هي . وشعرتْ في قرارة نفسها أنّ هذه الأخت قدأثارت اهتمام والدتها أكثر منها. لقد سلبتها جزءاً كبيراً من الحبّ والدلال الذي كان لها وحدها !

وتتتابع الأيام وتمرُّ بسرعة وهي على هذا النحو من الغيظ

والغضب من شقيقتها. حتى جاء يوم لم تعد تطيق فيه هذا الوضع ولم يعد بمقدورها الاحتمال أكثر !

ماذا تفعل ؟! كيف تعبّر عن سخطها واستنكارها ؟ لم تجد شيئاً سوى لعبتها « نانسي » ، فصبَّت عليها جامَ غضبها وأعملت فيها ضرباً وأذى . لم تجد شيئاً آخر أكثر صبراً من هذه الدميـة على احـتمال ردّات فعلها من الغضب الثـائر والمتوهّج في صدرها من أختها ميلدرد .

ورغم أنها كانت تحبُّ هذه الدميـة وتفضّلها على غيرها من الدمى الأخرى التي تفتح عيونها و تُغلقها، لم تجد بدّاً من الانتقام ممّن تحب ، وكأنها بهذا تريد أن تعبّر عن انتقامها من والدتها التي تحبها ولا تقدِرُ أن تطالَها مثلما تطال الدمية !

وفي ذات يوم جاء الانتقام سريعاً من أختها ميلدرد . فقد وجدتْها تنـام إلى جانب دميتها نانسي على فراش واحد أعدّتـه لنوم نانسي فقط . وهنـــا ثارت ثائرتها ، وانفجرت غضباً لهذا التعدّي والعمل الوقح . فأسرعت إلى الفراش وقلبته رأسـاً على

عقب . ولولا سرعة والدتها في التقاط ميلدرد قبل أن تسقط على الأرض لكانت قضت .

وأخيراً ، وبعد هذه الحادثة ، تحرّكت عواطف الحبّ الأخوي في قلبها . فصادقتها ، وأحبّتها ، وصارت تسير معها متشابكة اليدين !

ومع ذلك لم تكن ميلدرد تفهم لغة الأصابع التي تحرّكها أختها للتدليل أو الافصاح عن شيء ، كما لم تفهم هي لغتها وكلامها الصبياني !

ورغم ما عانته هيلين في بداية الأمر من مجيء أختها ، إلا أنها لم تنسَ أن تذكّر والديها بحبّها الكبير ودفء حنانها نحوهما:

« كان والدِي كريماً ورقيقاً جداً ، وكان حبُّه لعائلته يملأ قلبه النبيل . ونادراً ما كان يتركنا في غير فصل الصيد ، إذ كان صياداً ماهراً . ولهذا كان حبه موجّهاً إلى كلبه وبندقيته بعد عائلته. لا زلتُ أذكر لمستَه المحبّة وهو يقودني من شجرة إلى

شجرة كي يُدخلَ السرورَ إلى قلبي .. وكان سروري يجلب له كثيراً من الغبطة. وكان هذا الوالد الكبير القلب أحد القصصيّين المشهورين . فما أحلى حديثه وهو يروي لي أفضل قصصه بتهجئتها عن طريق لمس يديّ! ولم يكنْ يسرُّه شيء أكثر من جعلي أعيد سردها له في لحظات مناسبة » .

وتستطرد في الحديث عن حبّ الوالدين لها فتقول :

« ولكن .. ما بالي أنسى والدتي ؟! كيف يجب أن أكتب عنها ؟ إنها قريبةٌ مني بشكلٍ يجعلُ من الصعب عليّ أن أتحدّث عنها . إنّ حديثها لي كنزٌ لن أبوحَ به للآخرين » .

المرحلة الثانية من الأيام الصعبة
السفر للمعالجة
قدوم المعلمة سوليفان

المرحلة الثانية من الأيام الصعبة :

لم تدمْ الحيـاة طويلاً على هذه الحال ، فقـد بدأ كلُّ شيء يتغيّر .. ومع تقـدُّم هيلين في العمر ـ وهي الآنـ في السادسة تقريباً ـ كانت رغبتُها في التعبير عـن نفسها تنمو وتشتدّ . فقـد شعرت بأنّ هذه الإشارات القليلة التي كانت تستعملها، أصبحت غير كافية ولا تفي بالغرض والحاجة !

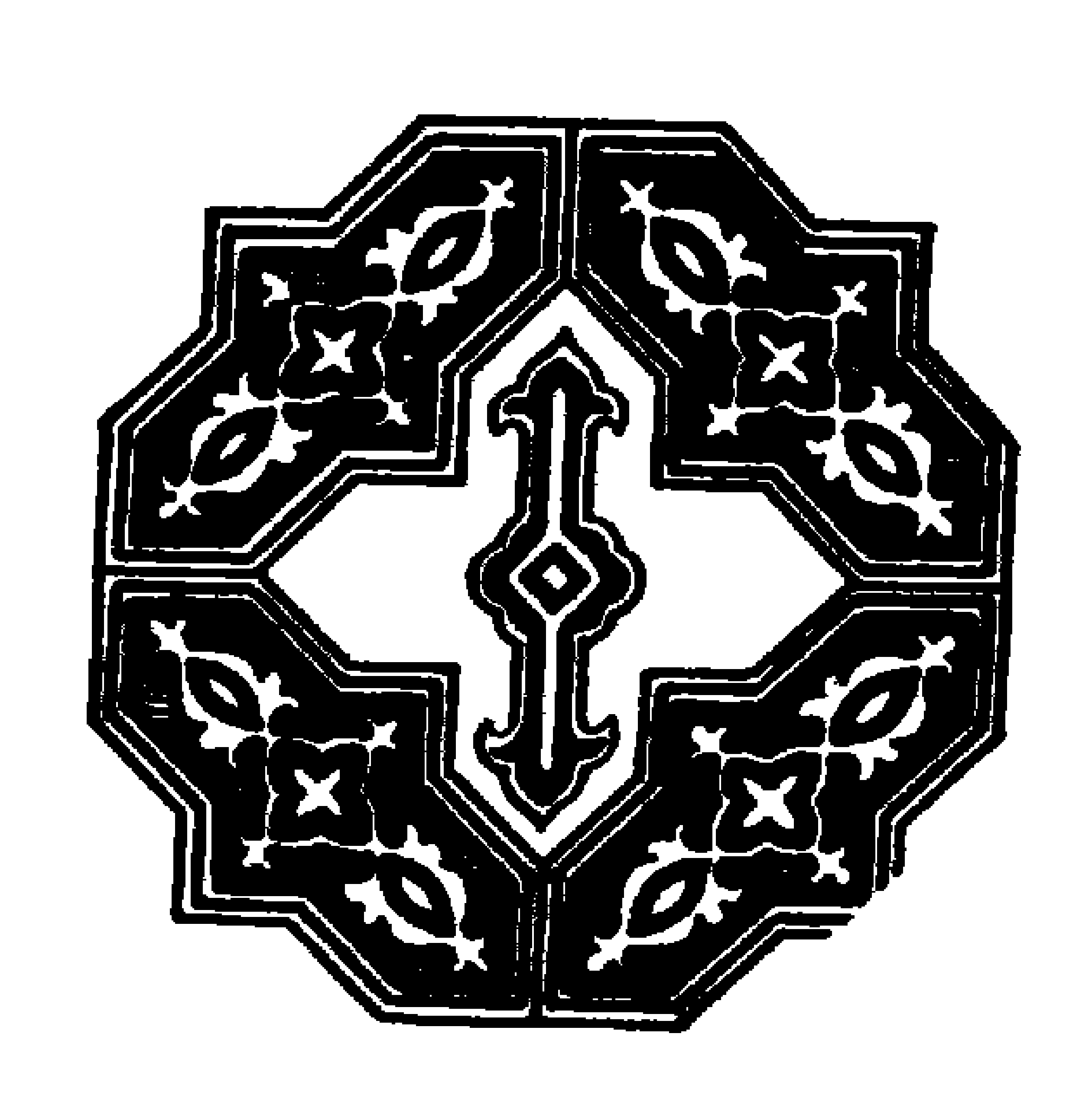
وذهبت محاولاتهاالعديدة لتجعل نفسها مفهومة لدى الآخرين أدراج الرياح . فقـــد فَشِلتْ . وهذا ما سبّب لهـا انفعالات شديدة ، جعلها تَركنُ إلى اليأس في بعض الأحيـان ، ثم تعود لتقاومَ وتناضلَ من جديد . فروح المقاومة كانت قوية عندها ، ومع ذلك كانت تفشل مرّةً تلو الأخرى . وهذا ما جعلها عرضة لنوبات عصبية مؤلمة ! وكثيراً ما كانت تُطلق العنانـ لدموعها الحارّة الغزيرة كتعبير عن يأسها وألمها !

حاولت مراراً أن تستنجدَ بوالديها لينقذاها من الألم الذي تقاسيه .. ولكن ماذا عسى أن يفعلَ الوالدان أمام هذا الذي تعانيه ولا طاقة لهما على حلّ أسبابه سوى تقديم مزيد من الحب والعطف !! كانت تشعر أنّ والديها يتألمان ويتعذّبان لحالها ، ولكنهما عاجزان عن فعل شيء ، أي شيء !

كانت تبحث عن وسائل جديدة تمكّنها من التعبير عن نفسها ، وهي غير قادرة بمفردها بعد أن ظلّ الفشل يُلازم محاولاتها ويقضي عليها ! إذن ما الحل ؟! لا حلّ أبداً . فقد كانت تعيش مع عائلتها بعيدِين جداً عن أيّة مدرسة للعميان والصُّم. وكان صعباً على أيّ إنسان أن يقبل المجيء إلى «تسكمبيا» لكي يقوم بمهام تعليم طفلة عمياء صمّاء !

والدتها لم تقطع الأمل في إمكانية تعليمها وتثقيفها ، فقد قرأتْ عن طبيب اسمه « هوي » استطاع أن يعلِّم ويثقِّف فتاة عمياء صماء مثلها اسمها « لورا بريدجمن » . ولكنَّ الطبيب هذا الذي اكتشف طرق تعليم الصُّم والعميان مات منذ سنوات !

وإلى جانب الوالدة ، كان الوالد يعمل بفكره وقلبه لإيجاد طريقة يساعد بها ابنته هيلين. لقد سمع عن طبيب مشهور للعيون كان قد نجح في إعادة النظر لأشخاص مكفوفين بعد أن فقدوا الأمل في استعادة بصرهم . فقرّر استشارة هذا الطبيب وعرْض حالتها عليه لمعرفة ما يمكن عمله لها .



السفر للمعالجة :

وبدأتْ رحلة الأمل، وكانت سارّة جداً بالنسبة إلى هيلين. فقد عقدتْ أثناءها صداقات مع أشخاص كثيرين في القطار : السيدات اللواتي تواجَدْن معها ، وحارس القطار ، كانوا جميعاً لطفاء معها ، وقدّموا لها الهدايا . أحد المسافرين صنع لها دميةً كبيرة من القماش ، ولكنه جعل منظرها سخيفاً جداً ، كما تقول، إذ أبقاها بدون أنف وفم ولا أذنين أو عينين .

لم يُثر اضطرابها واهتمامها بما صنع المسافر في الدمية سوى عدم وجود عينين لها . أشارت إلى كثير من الركاب محاولةً إفهامهم إلى حاجة الدمية للعينين ، ولكنّ أحداً منهم لم يكن قادراً على تزويدها بما تريد . وعثرت مؤخراً على خرزتين ، وثبّتتهما في مكان العينين .

وفي هذا العمل يَبرزُ اهتمام هيلين وتعلّقها بالعين والبصر

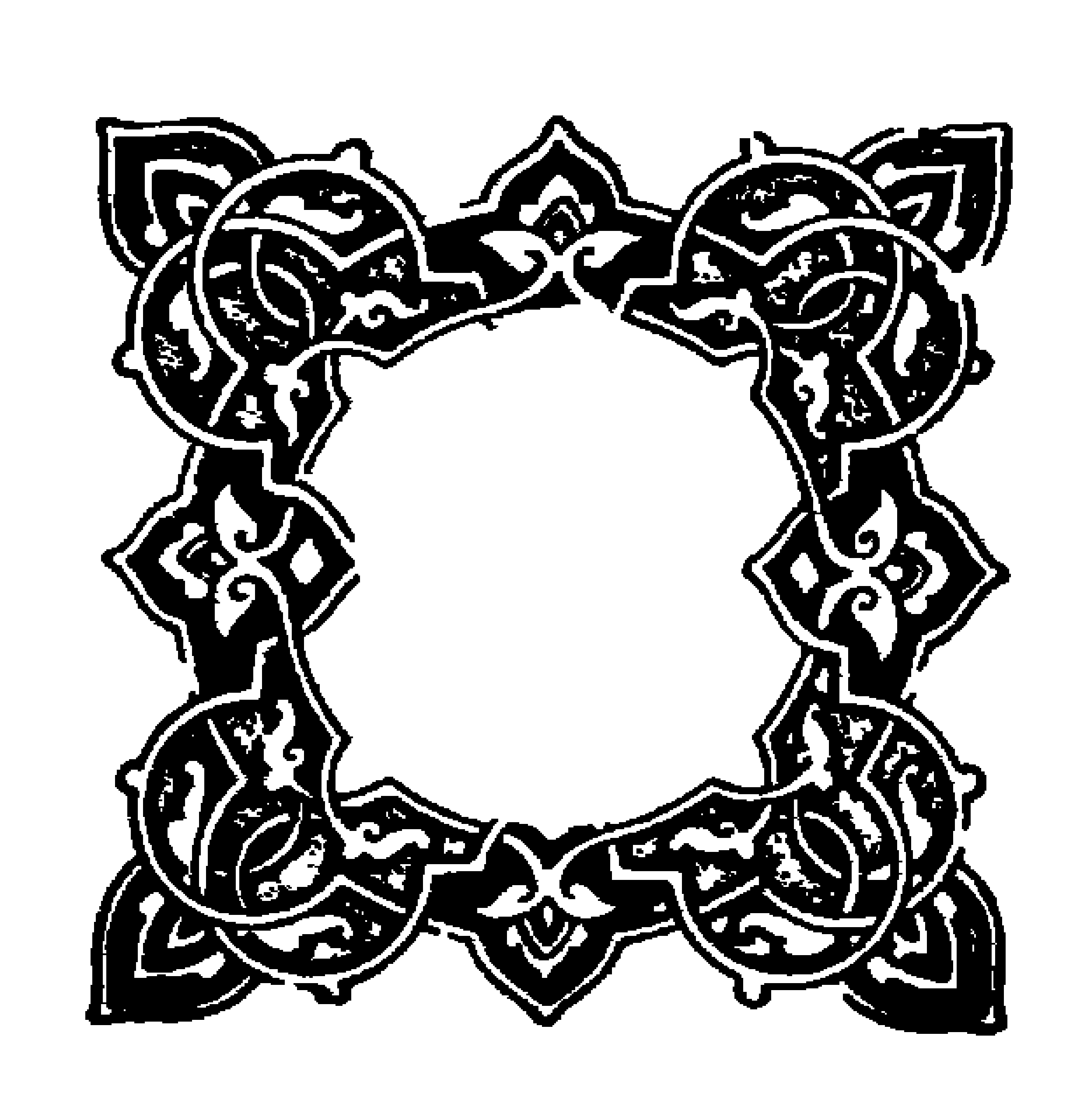
أكثر من سواه .. فهي كانت ، وكما يبدو ، من جراء هذا التصرُّف أنها على استعداد لأن تتنازل عن أيَّة حاسَّة أخرى مقابل احتفاظها بحاسة البصر !

وأخيراً ، وصلت هيلين برفقة والدها إلى الطبيب . وهنا كانت تختبىء الصّدمة الأخرى ، فبعد أن رحَّبَ بهما كثيراً ولاطف هيلين ، أفاد بأسف شديد أنه لن يتمكّن من أن يفعل شيئاً أمام هذه الحالة الميؤوسة! ولكنه أضاف أن الشيء الوحيد المتبقّي هو تعليمها . وأرشدَ الوالد إلى طبيب في واشنطن يدعى «بيل»، فلديه المعرفة عن المدارس والأساتذة المتخصّصين بتعليم أمثال هيلين .

وعند « بيل » وجدتْ الأمل الآخر الذي يمكن أن يعوّض عن الأمل المفقود . ووجدتْ مرحلة الانتقال من الظلمة إلى النور : نور العلم !

نعم . لقد كان بيل الأمل المرتجى بعد أن خاب أمل العينين ! كان أمل البصر الثاني ، أمل العلم والمعرفة ! وكم من

مبصر بجهله لا يرى إلا الظلام ، وكم من فاقد للبصر يرى بعلمه نور الحقيقة ! فقد تمّ عن طريقه العثور على الآنسة «سوليفان» ، وهذا هو اسم معلمتها الجديدة التي فتحت لها آفاقاً جديدة في الحياة تمّ من خلالها الاستمتاع بالصداقة ، والزمالة ، والمعرفة ، وحب الآخرين .



قدوم المعلمة سوليفان :

إنّ أعظمَ يوم في حياة هيلين هو ذلك اليوم الذي وصلتْ فيه سوليفان . هكذا قالت هيلين في مذكراتها . واستطردت : « وإنه ليملأني العجب وأنا أفكر بفارق الظلمة والنور في حياتي قبل مجيئها وبعده » .

وها هي تصفُ ساعةَ الانتظار والوصول فتقول :

« إننا في اليوم الثالث من آذار ١٨٨٧ ، ولم يبقَ على بلوغي السابعة من عمري إلا ثلاثة أشهر . وها أنا أقف عند مدخل البيت ساكنة مترقّبة . لقد أحسستُ أنّ شيئاً غير عادي سيحدث . وهكذا ذهبتُ إلى مدخل البيت لأنتظر على الدرجات هناك .

« ها هي حرارة الشمس تلفح وجهي وأنا أقف هناك ، ولا بدّ أنّ الشمس تجود بنورها على الأزهار التي تغطي مدخل

البيت . آه ما أجملها! ها هي أصابعي تتحسّس الأغصان والزهور المألوفة التي نمت لتستقبل فصل الربيع . إنّ لها الحق في ذلك .. أما أنا ، فمن أين لي شيء من ذلك ! لقد ظللتُ أشعر باليأس والاستياء خلال الأسابيع الأخيرة ، وتملكني ضجر عميق من واقعي المرير . كنتُ مثل سفينة في مهبّ الرياح ، ولكنني لا أملك القدرة التي تقودني إلى الشاطىء الأمين .

« أيها النور ، أعطني النور !

« كانت هذه صرخة صامتة قد انبعثتْ من روحي ، وها قد أضاء عليّ نور الحبّ في نفس هذه اللحظة .

« إنني أشعر بأقدام تقترب مني .. ومددت ذراعيَّ إلى الأمام ، معتقدة أنها أمي . وأمسكَ أحدٌ ما بهما .. وأحسستُ بنفسي محمولة بين ذراعيها ، من هي ؟ إنها التي حضرت لكي توضّحَ لي جميع الأشياء ، لا بل وأكثر من هذا ، لكي تحيطني بالمحبة والعطف . إنها معلمتي مس سوليفان » .

وبدأتْ مسيرةُ النور. ففي صباح اليوم التالي لوصول

المعلمة ، قادت سوليفان هيلين إلى غرفتها وقدّمتْ لها دميةً جميلة قالت إنها جاءتْ بها هدية من بعض الأطفال في مدرسة معينـة ، كما إنّ الطفلة « لورا بريدجمن » الـتي أتينا على حديثها من قبل ، وهي مَن استعادتْ بصرها على يد الطبيب المتوفي « هوي » قـد فصّلت ملابس هذه الدمية .

وكانت خطة سوليفان الأولى في التعليم هي أن تترك هيلين تلهو لبعض الوقت في هذه الدمية حتى تتعرّف عليها وتتعلّق بها، ثم تبدأ بتهجئة كلمة دمية وهي بين يدي هيلين عن طريق تحريك الأصابع ، أو كما أسمتها هيلين « لعبة الأصابع » ، ويبدو أن هذه اللعبة قـد راقتْ للتاميذة هيلين ، فنجحتْ بهـا وأجادتها ، حتى أصبحت تقوم بعمل الأحرف بشـكل صحيح بعث فيها شعورَ الفرح والاعتزاز .

وهكـــذا ، وعلى مرّ الأيام ، تعلمتْ هيلين كيف تتهجّى عدداً كبيراً جداً من الأسماء ، مثـل : دبوس ، قبعة ، فنجان ، وبعض الأفعال مثل : إجلسْ ، قف ، سِرّ ..

وتابعتْ هيلين خطواتِها السريعة في تعلّم الأشياء ، رغم ما كان يشوب علاقتها مع المعلمة في بعض الأحيان من سوء تفاهم نتيجة الاختلاف على بعض الأسماء والمعاني ، مثل خلافها معها على اسم « إبريق » و « ماء » ، حيث كانت تخلط هيلين بين الاثنين ، فتعتبرُ الإبريق ماء والعكس بالعكس . ثمَّ الخلاف على الاسم الواحد حين يكون صغيراً أو كبيراً ، حيث اعتقدت هيلين أنّ الدمية الصغيرة تختلف اسماً عن الدمية الكبيرة !

وكثيراً ما كانت معلمتها تتجاوز أو تتجاهل مثل هذه المواضيع عندما يثور غضب هيلين بسببها ، ثم تعود إليها بعد أن تهدأ ثائرة التلميذة العنيدة ، وتحاول من جديد إفهامها عن طريق الشرح والتوضيح أن الإبريق هو إبريق والماء هو الماء ، وأن الدمية الصغيرة اسمها دمية ، وكذلك الدمية الكبيرة فإن اسمها دمية أيضاً .

ولم تعدِمْ هذه المعلمة وسيلةً في تعليم هيلين .. حتى أنها انتقلت بها إلى خارج البيت في نزهة إلى الحقول ، لتقدّم لها على

الطبيعة بعض ما يمكن أن تتعلّمه من أسماء .. فاصطحبتها ذات يوم دافىء مشمس إلى بئر حيث وجدتا شخصاً ينشِل الماء في دلو ثم يصبُّه في قناة مبلّطة. فأخذتْ سوليفان يد هيلين ووضعتها في مجرى الماء البارد وبدأتْ تتهجّى فيها كلمة « ماء » .. ببطء أول الأمر ثم بسرعة فيما بعد . فعرفت عندئذ أنّ الماء هو الشيء البارد المنعش الذي كان يتدفّق فوق يدها ، وهو إذن غير الإبريق . لقد أيقظت تلك الكلمة الحيّة روحها وزوّدتها بالنور ، والأمل ، والسرور ، وأعتقتها !

هذا ما قالته في مذكراتها عن الفرح الذي دبّ في أوصال الجسد والروح وأنعشهما معاً بعد أن اهتدت إلى المعرفة والنور.

وتضاعف شعورها بالاتحاد مع بقية العالم، عندما استيقظت روحها وألمّت بمعرفة الكثير من الأسماء ! وإلى جانب هذا ، فقد تعلمت دروساً أخرى عن عطف الطبيعة وكرمها . تعلمت كيف أن المطر يجعل الأشجار تنمو ، وكيف تبني الطيور أعشاشها فوق هذه الأشجار . بل كيف يجد الأسد ، والأيل ،

والمخلوقات الأخرى ، الطعام والمأوى في الأشجار المتجمّعة ..

وفي حادثة لها تعلّمت أيضاً أنّ الطبيعة الحنونة الكريمة يمكن أن تكون مخيفة وقاسية . فقد خرجت يوماً مع معلمتها إلى الطبيعة . وكان الطقس صحواً والشمس مشرقة . وتسلّقت إحدى الأشجار ، في الوقت الذي ذهبت فيه معلمتها لإحضار شيء ما من البيت. وفجأة لم تعدْ تشعر بحرارة الشمس، وأحسّت بأنّ السماء قد غشّتها الظلمة ، إذ كانت حرارة الشمس عندها هي الضوء. وهبّت عاصفةٌ كادت تُسقطها أرضاً لو لم تتشبّث بأغصان الشجرة بكل قواها . ولولا يد معلمتها التي أمسكتها في الوقت المناسب لكان حصل لها ما لا تُحب .. ولقد مضى وقت طويل على هذه الحادثة التي أرعبتها قبل أن تتسلّق شجرة أخرى .

ومرّة أخرى عاودها الفرح والسرور عندما جلست على مقعد صغير فوق إحدى الأشجار .. ونسيتْ ما حصل لها في السابق ..



إستيقاظ الروح
درس الكتب والحياة
درس الطبيعة

إستيقاظ الروح :

سارتْ الأمورُ على ما يرام . وبلغتْ هيلين درجةً مرموقة من المعرفة . وها هي الآن تبحث عن مرحلة أخرى من مراحل التعليم . فهي تريد أن تعرف معاني الكلمات والأشياء . فكان الحبُّ أول كلمة تريد أن تعرف معناها .. ورغم الصعوبات التي اعترضتها في معرفة المعاني، وذلك في صعوبة التمييز بين المحسوس واللامحسوس منها ، فقد توصلتْ إلى معرفة ما يعنيه الحب !

فقد طوّقتها معلّمتها بذراعَيها وضمّتها إلى صدرها عندما استفسرت منها عمّا يعني الحبّ ، وتهجّأت في يديها : « أنا أُحبُّ هيلين » ، وضمّتها إليها أكثر فأكثر عندما أعادت السؤال : ما هو الحب ؟!

ثم أشارتْ إلى موضع القلب عندها . ولم تفهم بادىء الأمر

لأنها اعتادتْ أن لا تفهم شيئاً إلا إذا لمسته ، فكيف لها أن تلمس القلب ؟!

وظلَّت تفكِّر وتسأل ، والمعلمة تجيب .

هل الزهر هو الحب ؟ لا .

هل الشمس هي الحب ؟ لا .

وأخيراً عرفتْ هيلين أنّ هناك أشياء لا يمكن لمسها ولكن لها اسم ومعنى . ففي ذات يوم، وبينما كانت جالسة تجمع حبّات من الخرز ، وقعتْ في أخطاء عدِّ هذه الخرزات. فكانت سوليفان تصحّح هذه الأخطاء برفق وحنان ، وتطلب منها إعادة تنظيم هذه الخرزات . ولمستْ جبينها برفق ، وتهجّأت كلمة « فكِّري » . وهنا أدركتْ أنّ هذه الكلمة تعبِّر عمّا كان يدور في رأسها . واهتدتْ مؤخراً إلى معرفة المعاني التي لا تُلمس . وكانت معرفة كلمة حب أول الطريق في اكتشاف المعاني الأخرى . وأدركتْ أنّ هناك كلمات تدلُّ على الأفكار ، مثلما أخرى تدلُّ على الأشياء .

لقد علّمتها سوليفان أنه ليس بمقدورها أن تلمسَ الغيوم ، ولكن تستطيع أن تشعر بالمطر .

وهنا تقول هيلين :

« لقد لمعتْ هذه الحقيقة في ذهني ، وشعرتُ أنه توجد خطوط غير مرئية تمتد بين روحي وأرواح الآخرين . وما أبهى لحظات الاتصال بين الإنسان وأخيه ! » .

وحين كانت هيلين تعجز عن إيجاد الكلمات والتعابير الضرورية لأفكارها ، كانت سوليفان تمدّها بها لتحتفظ بها عميقة في الذاكرة .

لقد فعلتْ معلمتها كلَّ شيء من أجلها. وكانت شديدة الصبر عليها . إنّ فضلها كبير وكبير جداً في ما وهبتْ وأعطتْ . لقد كانت هيلين إنسانة حيّةً بلا حياة ، فأصبحت بفضل معلمتها إنسانةً تتدفّق حياةً وحركة ..

كانت عملية إجلاء الغمّ عن روحها عمليةً صعبةً ومعقّدة

ولكن سوليفان تمكّنتْ من ذلك، ومنحتْها من صبرها كلّ ما يحتاج إليه فاقد الأمل في الحياة !

ولم تقفْ معلمتها عند هذا الحد من التعليم والتثقيف ، بل سعتْ إلى إرشادها في كيفية المشاركة في الأحاديث اليومية . ولكن مضى وقت طويل قبل أن تجرأ هيلين على فعل هذا ، وفي الاستعداد لانتقاء واختيار الكلمات والألفاظ المناسبة في العديد من المناسبات .

« إنّ العميان يجدون من الصعب جداً عليهم أن يُبدوا أيّ ميل مبكّر أو حيوية للكلام ، ولكنّ هذه الصعوبة تكون أعظم بكثير عند من يكونون صمّاً وعمياناً . فهم لا ينتفعون بتغيُّرات صوت المتحدّث ، ولا التعبيرات المتغيّرة على وجهه ، وهذه نكبة كبيرة » .

درس الكتب والحيـاة :

ومن أسماء الأشياء ومعاني الكلمات ، انتقلت هيلـين ، أو بالأحرى معلمة هيلين ، إلى القراءة والتثقيف .

وكانت الخطوة الأولى في هـذه المرحلة هي أن تتْقن هيلين تهجئة بعض الكلمات ، حتى إذا ما أتقنتها ، أحضرت لها معلمتها قطعاً ضيّقة من الكرتون عليها حروف مطبوعـة بشكل نافر . وكانت كلُّ كلمة مطبوعة تعني شيئاً أو عملاً ، أو تروي شيئاً مـا عن هذا الشيء أو ذاك .

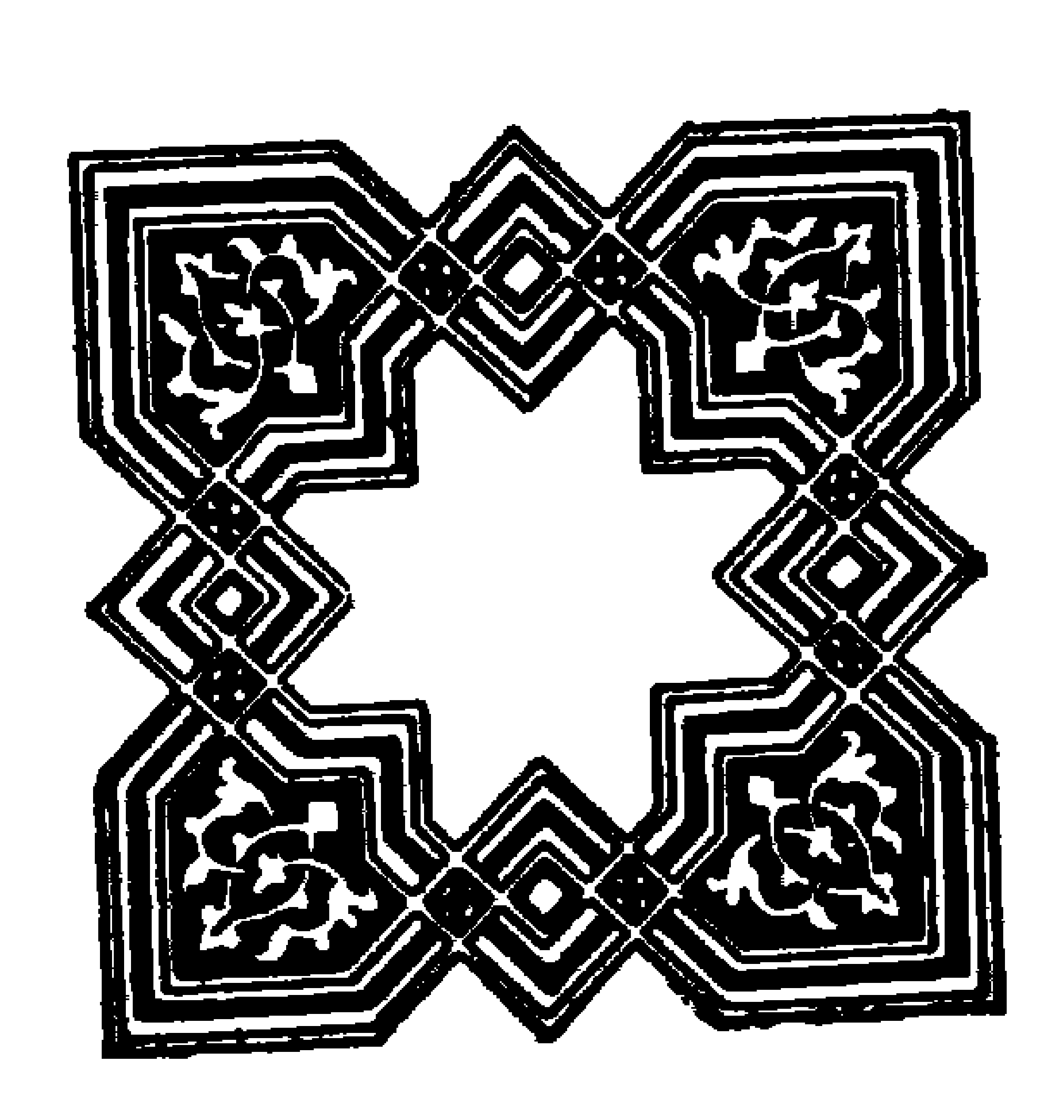
واستعانت هيلين بذكـائها الفطري ، فاستخدمت إطاراً ترتّب فيه الكلمات في جمل صغيرة . وكانت قبل أن تضع الجملَ في داخل الإطار تقابلها بالأشياء التي تدلُّ عليها . إنها مقبـلة على هذه اللعبة الـتي أسمتْها « لعبة التخفّي » بشغف وسرور .. فهي تريد أن تتعلَّم القراءة . فاندفعت بكلّ ما لديهـا ، أو ما بقي لها

من حواس ، تخترع وتبتكر لمساعدة معلمتها في تمكينها من القراءة والتثقيف .

وما هي تتناول كتاب « القراءة للمبتدئين » وتبدأ في المشوار الصعب الذي اختارته راضية وبحماس . وما هي إلا أيام معدودة في الدرس والمتابعة حتى بدأت القراءة .

وكانت المعلمة متساهلة ، وتتّبع معها أسلوباً فريداً في التعليم فيه شيء من المهارة والبراعة ، أُسلوب تَداخلَ فيه علم النفس مع التعليم . كانت تعرف ماذا تريد هيلين، وما هي الحدود التي يجبْ أن تتوقّف عندها معها .. وكانت تريد أن تستوعب ما تقدر عليه هيلين .. لا ما تريد هي أن تطلبَ حفظه .. تفهمُ كلّ رغباتها وتعمل على تحقيقها . تفهم ما يدور في خلدها حين تراها تفكّر ، وتساعد على حلّ مشاكلها إن وُجدت .. بل إنها كانت تمتلك مقدرةَ عجيبة على الشرح والوصف ، بشكل بات يذلّلُ كلّ ما يعترضها من حواجز وصعاب .. كلُّ شيء كانت توضّحه في صورة قصّة أو شِعرٍ جميل ..

لقد التصقت بها هيلين جسداً وروحاً ، وباتت لا تقوى على مفارقتها أبداً . إنها الأمل والحياة بالنسبة لها . بل هي الأم الرؤوم التي تحنو على طفلتها العمياء ، وتحاول بكلّ جهدها وإمكاناتها أن تخفّف عنها عبءَ الظلام ! كانت تتصرّف معها كفتاة صغيرة في جسم ناضج وعقل كبير . ولعلّ خبرةَ سوليفان في معاشرة العميان قد أكسبتْها هذه المرونة والصفات الجميلة !



درس الطبيعة

كان للطبيعة فضلٌ آخر على هيلين . لقد ساعدتها مع المعلمة على فهم أشياء لم تكن لتدركها أو تفهمها داخل البيت . فهذه الغابات الطلقة المشمسة ، وهذه الطيور والنحل والزهور والأشجار والضفادع والحشرات ، كان لها نصيب في تعليمها وتثقيفها . وكم شعرت وهي في الغابة بوشوشة الريح في آذان سنابل القمح وهمساتها لأوراق الأغصان !

إنها الحياة الحلوة السعيدة لمن أدرك فهمها ، ووقف على حقيقة وجودها واكتنهَ أسرارها . ومع الطبيعة يدرك الإنسان كم هو جميل هذا الكون . فالطبيعة تكشف لنا وجوداً يضجُّ بالحياة المشرقة .. وتقودنا إلى هذه الحياة إذا ما أخلصْنا في مصادقتها ، وحَرِصْنا على الوفاء لها .. أوَليستْ الطبيعة هي الإنسان ؟! أوَليسَ الإنسان جزءاً من هذه الطبيعة ؟! والطبيعة

خُلقتْ من أجل الإنسان ، من أجل تعليمه وتثقيفه .. من أجل أن تكمِّلَ صورة الحياة الجميلة .. فما بال الإنسان يبعد عن الطبيعة ، وتغرب عن فهمه حقائق وجودها وسرّ كينونتها .. وأخيراً ، ألمْ يَفدْ أطبّاء علم النفس وينصحوا مرضى النفوس ومتعَبي القلب بالالتجاء إلى الطبيعة .. إلى صدرها الحنون.. فهي لها قدرة عجيبة ولغزٌ محيِّر في المساعدة على الشفاء !

في الطبيعة تعلَّمت هيلين أشياء قيِّمة في الجغرافيا ، فقد أقامتْ لها الآنسة سوليفان خرائط مرتفعة من التربة حتى تتمكّن من تحسُّس سلاسل الجبال والوديان ، وتتبع بأصابعها أخاديد الأنهار ومجاريها .

أما في علم الحساب ، فهو الشيء الوحيد الذي لم تحبّه هيلين على الاطلاق . وقد وجدتْ صعوبةً بالغةً في فهمه وإدراكه . كان اهتمامها بالأعداد قليلاً . ولكن بفعل إصرار معلمتها تمكّنت أخيراً من استيعاب هذا الموضوع وفهمه. فالطريقة السهلة المبسّطة التي اعتمدتها سوليفان في الشرح والتعليم كان لها الأثر البالغ في

جعل هيلين تتنازل عن فكـــرة مناصبة العداء لهذه المـــادة وتتقبّلها ..

وفي مجال الحديث عن الطبيعة وعلم الحساب تَذكرُ هيلين في مذكراتها هذه الحادثة التي جمعت بين المبهج والمخيف، فتقول :

« أرسل لي ذات مرة سيِّد ـ نسِيتُ اسمه الآن ـ مجموعة من الصَّدف الصغير ذات رموز جميـــلة ، وبعض قطع من الحجر الرملي عليها علامات أقدام الطيور ، ونبتة مزروعة جميـــلة . فكانت تلـك الأشياء هي المفاتيـح التي فتحت أمامي كنوز العالم المغلقـة .. هذا العالم الذي لم يـكن يقطنه الإنسان فقط ، بل الحيوانات الضخمة المرعبة التي تمزِّق فروع الأشجار الباسقة من أجل أن تفوز بما يملأ أجوافها . غير أنّ هذه الهديَّة آذتني فعلاً . فقد ظللت لمدة طويلة أرى هذه المخلوقات الغريبـــة في منامي . وهـكذا شكّلتْ خلفيّـةً مظلمةً لحاضري المفرح المملوء بأشعة الشمس ، والورود، وضربات حوافر حصاني الصغير اللطيف ».

ومن دراسة إلى دراسة ، ومن نجاح إلى نجاح ، كانت تنتقل

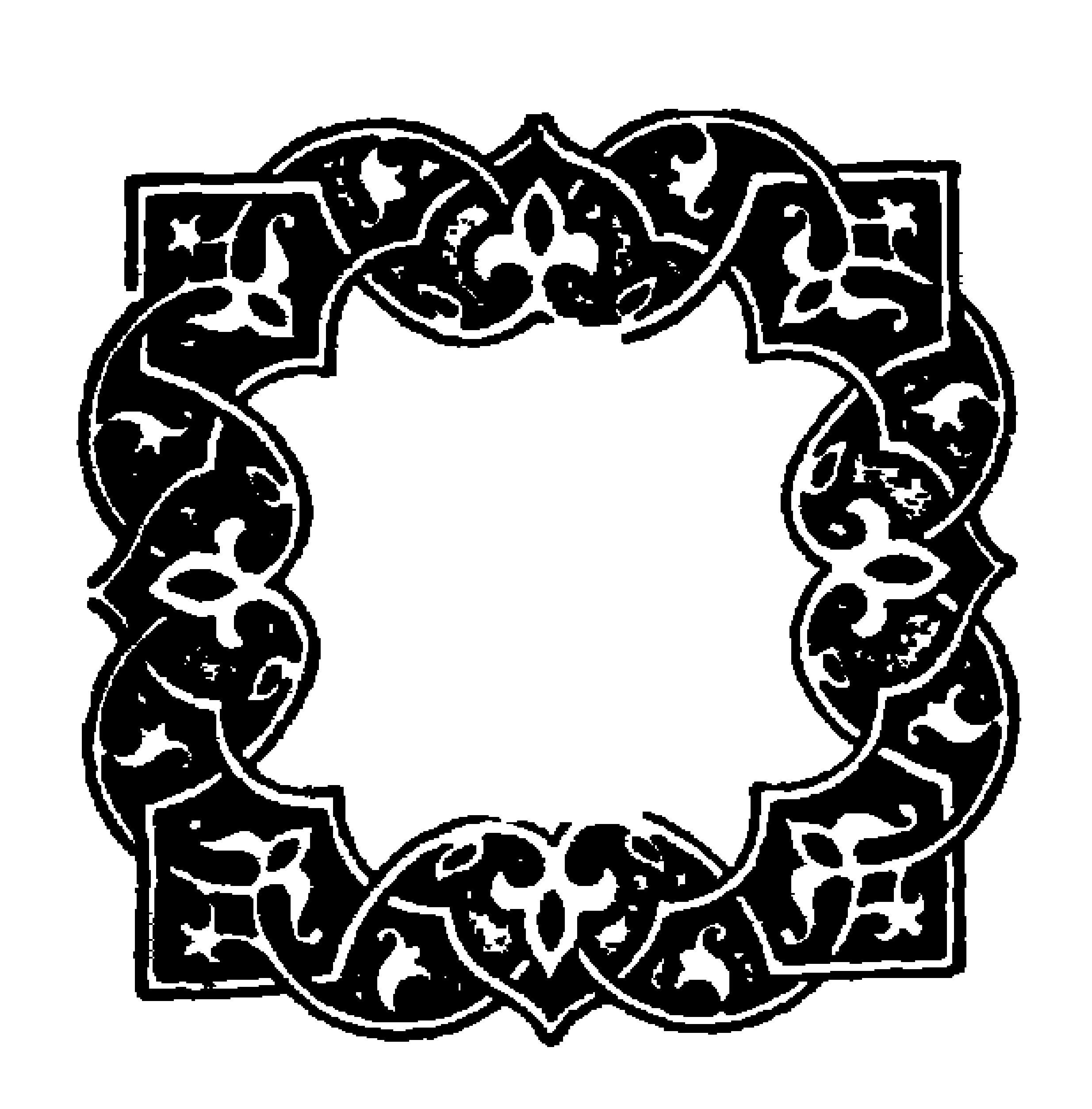
هيلين ، وهي تشعر بفرحة غامرة . فالمعلمة ساعدتها على إتقان كثير من العلوم والأشياء . والطبيعة أيضاً علمتها معرفةَ الكثير الكثير ، كما علمتها كيف تحيا . ومن الحياة نفسها تعلمتْ . فلقد شبَّهت نفسها في البدء بكتلة صغيرة من الامكانات فقط . . وعندما حضرتْ معلمتها تحوّل كلُّ ماحولها إلى شيء ينطق بالحب والفرح ويمتلىء بالمعاني .

لم تكن سوليفان تدعْ فرصةً تمرُّ دون أن تبيِّن لها الجمال الذي يوجد في كلّ شيء ، ولم تتوقّف عن المحاولة ، بالفكر أو العمل أو المثل ، كي تجعل حياتها حلوة ومفيدة . وفي هذا تقول هيلين :

« فالحق والحق أقول : إنّ عقل معلمتي وروحها الممتازَين ، ثم تفهُّمها السريع لي وحكمتها المحبّة .. هي التي جعلتْ أولى سنوات تعليمي جميلة للغاية . كانت تعلَمُ أن عقلَ الطفل يشبه جدولاً صغيراً ، فهو بحاجة إلى التغذية كي يتوسّع فيتحوّل إلى نهر عميق .

« وبإمكان أيِّ معلم أن يأخذ طفلاً إلى غرفة التدريس ، ولكن ليس بمقدور كلِّ معلم أن يجعله يتعلَّم . فهو لن يُقبلَ على الدرس إلا إذا كان مسروراً .

« إنَّ من الواجب أن يشعر الطفل بنشوة الانتصار وكآبة الفشل ، قبل أن يحاول ، برضاه ، القيام بعمل يكون مكروهاً لديه ، كالدراسة ، ثم يقرِّر أن يشقَّ طريقه في الحياة بشجاعة » .



رحلة العلم إلى بوسطن
في العطلة الصيفية
تجارب الماضي وأحداثه

رحلة العلم إلى بوسطن :

... وبعد أن تتحدّث هيلين في مذكراتها عن مناسبة عيد الميلاد بحضور معلمتها ، وعن التحضيرات والاستعدادات التي رافقتْ هذه المناسبة ، والهدايا والألعاب التي قُدّمتْ لها من قبل الجميع.. ثم عن العائلة والأصدقاء الذين احتفلوا معها وشاركوها بهجة العيد .. وعـــن العواطف والمشاعر التي أحسَّت بها في حياتها .. والعصفور الجميل الذي أهدته المعلمة لها ووضعته في قفص جميل .. وكيف التهمته القطة ذات يوم عندما تركتْ باب القفص مفتوحاً ، وكم حزنت عليه بعد أن ألِفَته واعتادت قضاء بعض الوقت في اللعب معه ، تنتقل إلى الحديث عن رحلة العلم إلى مدرسة العميان في بوسطن .

في عام ١٨٨٨ ، وعندما كانت في الثامنة من العمر ، قامت هيلين برفقة والدتها ومعلمتها برحلة إلى بوسطن حيث كان ينتظرها

أملٌ آخر من آمال الحياة المتفتّحة يُكملُ بـذورَ العلم المخصب في نفسها ويُشيع الدِّفء في روحها القابلة للزرع الحسن ..

كانت معلمتها تصف لها في القطار كلَّ ما تقع عيناها عليه من المشاهد الجميلة بين الأنهار والحقول، وكأنما هي تراها بنفسها. فقد أبصرتْ هيلين بعينيْ معلمتها والوصف الدقيق الذي برعت به كأنما هي رسَّامة محترفة .

ووصل القطار مدينة بوسطن ..

وهناك بدا لهيلين وكأنّ إحدى قصص الجنّ قد أضحت حقيقة واقعة . فكلمة « حدث ذات مرّة » تعني « الآن » ، وها هو البلد البعيد أصبح « حَيْثُ هُم » .

وفي المدرسة التي تعلمت بها « لورا بريدجمن » بدأتْ إقامة هيلين في طوافها حول المعرفة والعلم. وسرَّها أن تلتقي وتتحادث مع أطفال آخرين يفهمون ويتقنون لغتها الخاصـــة . وأغرقَها شعورُ الفرحة والسرور لِما وجدت في هذه المدرسة ، حتى باتت

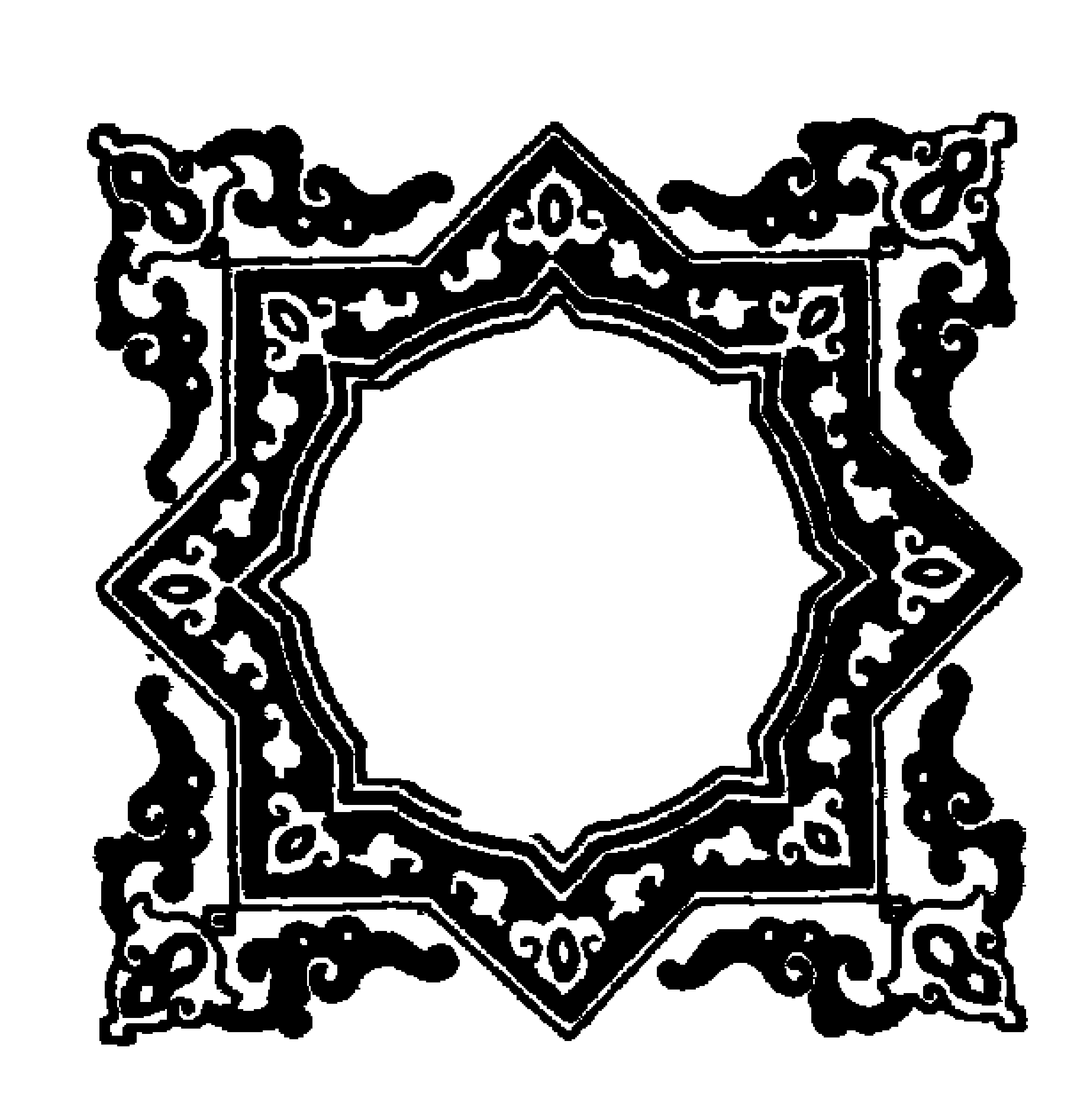
تحسُّ وكأنها في بلدها . وفي هذا تقـــول : « كنتُ سمكةً على الشاطىء ، أما الآن فها أنا « أثب » في الماء » .

وعرفتْ فيما بعد أنَّ جميعَ رفاقها في المدرسة هم أيضاً مـن العميان . إذن فقد جمعهم عالم واحد . وأكثر من هذا فعالمها الجديد هذا يضمُّ أيضـاً مجموعةً من الأطفال يفقدون موهبة الحياة الثمينة . إنهم أيضاً يقرأون الكتب بأصابعهم . ويصغون إليها ويحادثونها بوضع أيديهم فوق يديها . فلقد تألمتْ من أجلهم وسعدتْ في نفس الوقت ، لأن المصيبـة جامعة .. بوسطن هذه بالنسبة لهيلين هي أول العالم وآخره ..

ومرَّت الأيام بسرعة ، ولم تكن تشعر بالوحشة والفراق . وقد كانت تزداد سروراً كلَّ يوم بمعاشرة هؤلاء الأطفال، وكأنها في بيتها .. بل هذا هو بيتها وعالمها الحقيقي .

وتلقَّنتْ أولَ درس في الجغرافيا على يد « بانكر هيل » ، واستمعت إلى قصـة « الرجال الشجعان » الذين قاتـلوا بشجاعة فوق الأرض التي تقف عليها الآن !

وهناك في « بليموث » حيث قصدَتها مع رفاقها في رحلة بحرية على متن سفينة بخارية ، استمعت إلى قصة آبائها المهاجرين الذين كانت تكنُّ لهم الاحترام والتقدير لما جاءوا به من مآثر وأعمال عظيمة في التاريخ.. ولكنها صُدمتْ للحقيقة التي رُويتْ عنهم في تصرفاتهم وسلوكهم ، فهم لم يكونوا يُبدون الاحترام لآراء وأفكار الآخرين !



في العطلة الصيفية :

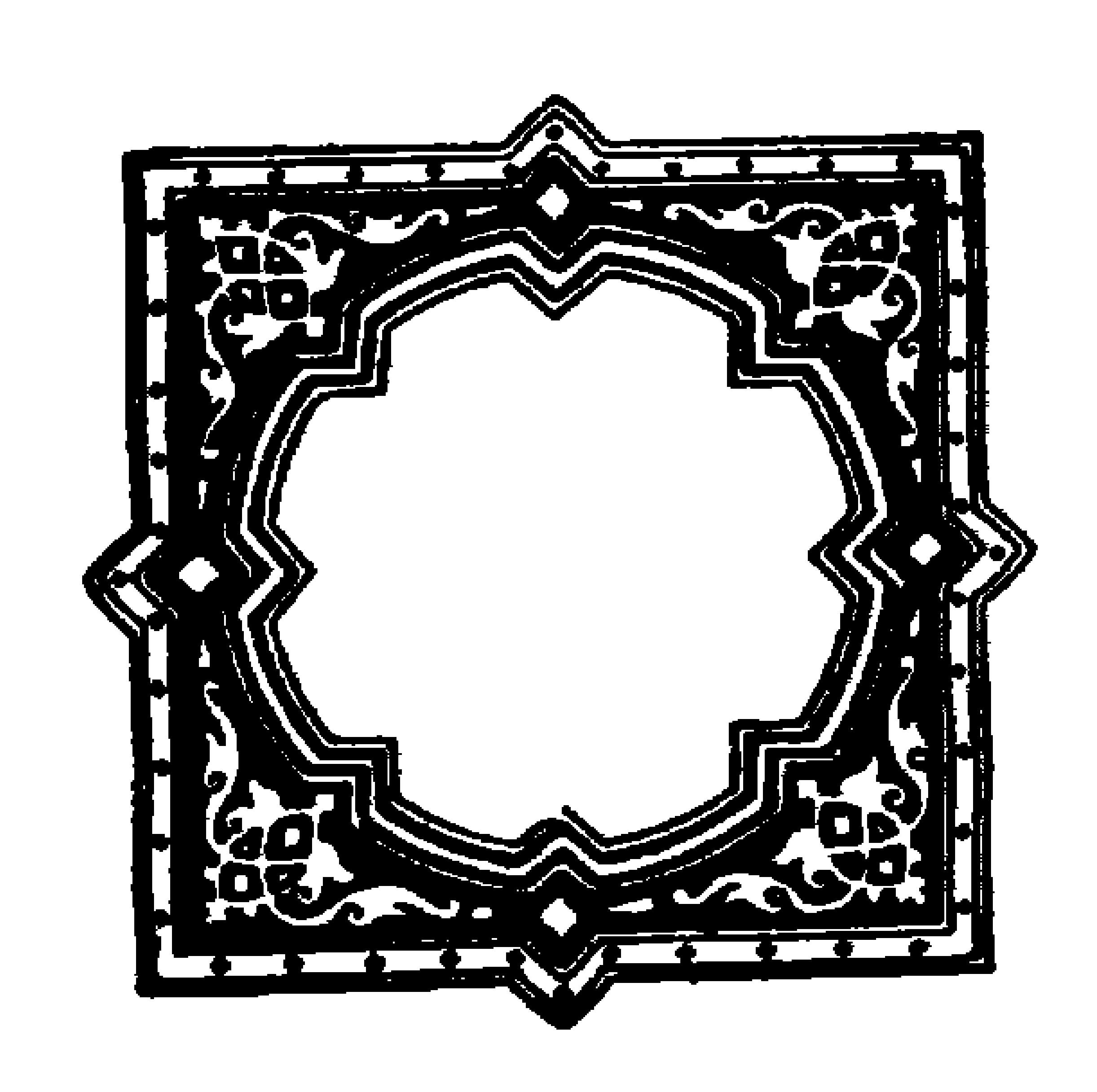
أَعِدَّتْ كلُّ الترتيبات لقضاء وقت ممتع في منطقة «بروستر» الساحلية . كان من أُمنية هيلين أن ترى البحر وتلمس أمواجه ومياهه ، وأن تعيش أياماً معه . فهي قد سمعتْ وقرأتْ عنه الكثير في كتاب « عالمنا » . ثم إنها عاشت طويلاً فوق اليابسة ، وتريد معرفة الوجه الآخر من الدنيا ! وها هي أُمنيتها قد تحقّقت . إنها في « بروستر » على شاطىء البحر مع معلمتها ، وصديقتها العزيزة السيدة « هوبكنز » . وها هي تلهو وتلعب ، وتنزل إلى المياه بملابس البحر .. لقد سَعِدتْ كثيراً وهي ترتفع وتهبط مع الأمواج ! إنه البحرُ الذي سمعت عنه ، هو حقيقة الآن ، إنها تريد أن تذوب فيه !

وبالفعل فقد كادت أن تذوب فيه ويبتلعها هذا الحبيب عندما سلّط عليها أمواجه العالية التي بدأت تتقاذفها مع ارتطام

قدميها بإحدى الصخور المنخورة .. وتدخّل القدر من جديد ، وقذفها البحر إلى الشاطىء .

يومها شعرتْ بالرعب الشديد ، وقالت لمعلمتها وهي بين يديها : « من الذي وضع الملح في الماء ؟ لقد أفسدَ طعْمه » . وهذا يعني أنها قد ابتلعت من الماء المالح ماجعلها تغضب وتثور.

ومع ذلك فقد ظلّت هيلين تذكر هذا اليوم ، وتذكر معه طعمَ هواءِ البحرِ المنعشِ النقيّ .



تجارب الماضي وأحداثه :

أكسبَ الماضي الذي عاشته هيلين في البيت والمدرسة وفي السفر والرحلات العديدَ من التجارب والخبرات ، وزوّدها بمعين لا ينضب من المعرفة والعلوم ، وأمدّها بمؤونة السفر الطويل في رحلة العمر الطويلة !

إنها تعرف الآن لو أنها لم تذهب إلى المدرسة ، ولم تناضل ولم تكافح هناك مع سائر رفاقها من المجاهدين العميان في سبيل العلم والثقافة ، لكانت الآن مجرّد كتلة من اللحم والعظم لا معنى لها ولا قيمة في هذه الحياة !

وكذلك معلمتها سوليفان ، لو لم تستقدمها العائلة وتَكِلُ إليها أمر تعليمها وإرشادها إلى منابع النور والمعرفة ، أيُّ مصير كان ينتظرها ؟!

لقد أتمَّت دراستَها المرحلية في بوسطن . وها هي تعود في

فصل الخريف إلى بيتها في الجنوب ، وهي تحمل معها جعبةً مليئة بالذكريات الحلوة السعيدة ..

لم تهدأ روحها ولم تسكن ، بل انطلقت مع معلمتها تبحث عن المزيد من كنوز العلم بين الطبيعة والأشجار ..

وفي بيتها الذي هو عبارة عن كوخ يشبه المخيم فوق قمة من الجبل الذي تحيط به الأشجار الباسقة ، كانت هيلين تلتقي مع أصدقاء والدها من الصيادين وتحادثهم وتقضي الأوقات السارّة معهم ..

ومعلمتها سوليفان كانت ترافقها في بعض الأحيان إلى الأحراج حيث يتحرّران من قيود البيت بين الأشجار والنباتات المتسلقة . ولم تنسَ أيضاً أن تخرجَ مع أُختها ميلدرد وبعض أصدقائها الصغار لجمع الفواكه والفستق .

وفي أحد الأيام ضلّت طريق العودة إلى البيت مع معلمتها وميلدرد . وكانت في نزهة بعيدة ، وقد حلّ الظلام ، ولم تكن

لتتجاسر ومن معها السّير فوق جسر مقام فـــوق وادٍ عميق .. وفجأةً سُمِع صـوت القـطار ، ولو لم تصرخ ميـلدرد مُنبّهةً إلى مَقدمه واقترابه ، لكان اجتاح الجميع قبـل الهرب والهبوط إلى أسفل الجسر ..

وعن العاصفة الثلجيّة الـتي هبّت على قريتها ذات يوم حيث كانت تقضي أيام الشتاء الباردة، تروي هيلـــين ساعات الخوف والقلق عندما اختفت الطرق ، وانقطع اتصالهم بالعالم الخارجي لمدة ثلاثة أيام .. وبعد أن هدأت ثورة الطبيعة ، وتوقفت الثلوج عن التساقط ، وعادت الشمس تَبزغُ من خلال الغيـــوم وهي ترسل أشعتها على الأرض البيضاء المبسوطة ، تصف هيلين منظر الطبيعة وهي ترتدي حلّةً من الثوب الناصع البياض الذي زادها بهاءً وجمالاً . وهي بهذا إنما تريد أن تعبّر عن سخطِ الطبيعـــة ورضاها ، وكم يتأثر الإنسان سلباً أو إيجاباً بإحدى الحالتين .

بدايـة النطق
العودة إلى البـيت
التجربة المحزنة في تأليف القصص

بـدايـة النطـق :

وبعد أن أتمّتْ هيلين مرحلةَ تعـــلّم القراءة والكتابة ، وأصبحتْ تقـــرأ وتكتب ، بدأت تبحث عن تعلّم شيء آخر تفتقده في نفسها .. شيء تكتمل به شخصيّتها الباحثة دوماً عمّا تعوّض به عن نقص السمع والبصر ! ولكنْ هي الآن ، وقد بلغت العاشرة من عمرها ، راغبـة في تعلّم النطق وإطلاق صوتها وصرخاتها ليسمعها جميعُ مَن في العالم ! إنها تريد أن تعبّر عن مكنونات صدرها وما يحمله قلبها وعقلها من أحاسيس وأفكار ترغب في إيصالها صوتاً إلى جميع الذين يحيطون بها .

قبل أن تعمى وتفقـد البصر ، كان يلذُّ لهيلين أن تطلقَ الأصواتَ القوية التي تثير الضجيج ، وتبتهج في المقـــابل لسماع أيّ صوت قوي ، ولو كان هذا الصوت هو صوتُ الهرة ونُباح الكلب .

ولكنها الآن ، وبعد أن عجزتْ عن النطق وسماع الأصوات إثرَ المرض، تحتفظ بمخزون هائل من الصوت الحبيس تريد أن تطلقَ به دفعةً واحدة إلى هذا العالم ليسمعَ قصتها مع الأحزان والآلام ..

وفي عام ١٨٩٠ كان بداية المشوار مع تعلّم النطق .. فقد قرأتْ في إحدى القصص الخاصة بالأطفال بأنّ هناك طفلة نروجيّة تدعى « راجبيلد كاتا » استطاعت ، وهي في حالة مشابهة لحالتها ، أن تتعلّم النطق والكلام . فسُرّت لهذا النبأ ، وامتلأ خيالُها الممتدّ بالأمل والرجاء ! فهي إذن تستطيع أن تنطق كما فعلتْ « راجهيلد كاتا » . فلجأت إلى معلمتها سوليفان وطلبتْ منها عن طريق الكتابة أن تُعلّمها وتدرّبها على إسماع صوتها للآخرين . ونزولاً عند رغبتها وإصرارها ، فقد سافرت بها المعلمة سوليفان قاصدةً « جيسي فولر » المديرة لأحد المعاهد الخاصة بتعليم العميان.. وقد كانت هذه السيدة المربّية كريمة معها ، فقد أخذت على نفسها مهمّة تعليمها النطق .

وبالفعل ، فقد بدأت دروسها معها .. وكان الدرس الأول يتلخّص بطريقة اللمس والحركة .. فقد رفعتْ يدَيْ هيلـــين ومرّرت بهما على وجهها - وجه المعلمة - برفق وحنان. ثم جعلتهما تتحسَّسان موضع شفتيها ولسانها وهي تتحدّث.. وكم كـانت دهشتها عظيمة وسرورها بالغاً عندما نطقت بأوّل جملة كاملة ، « الجو دافيء » . لقـد استطاعت في خلال ساعة أن تتعلّم ستة أصوات ..

وها هي في طريقها إلى تحرير نفســـها من سجن الصمت الرهيب. إنها بدأت تستعيد الصوت الذي حُرمته لأعوام خلت وهي منهمكةً في إعداد نفسها لتعلّم القراءة والكتابة .. لا شيء أجمل من الصوت حين ينطلق من الإنسـان لإسماع الآخرين بمـا يريد .. فهو الرسـالة الوحيدة الصادقة الـتي تصل بين القلوب بما تحمله أوتار الشفاه من أناشيد الحب والصفاء ..

ومع ذلك فلم تـكن الطريق كلها سهلة معبّدة ، فقد واجهتها

بعض المصاعب والعثرات التي استطاعت تذليل أكثرها والانتصار عليها . ولم يكن هذا بفضل جهادها وكفاحها فقط ، بل إلى المساعدة الكبيرة التي كانت تقدمها لها معلمتها سوليفان ..

وكانت كلما اشتدّتْ وعورةُ الطريق، تزداد جهاداً ونضالاً في سبيل تحقيق الغاية التي آلت على نفسها إلا أن تنتصرَ لها في النهاية . المهم أن لا تظلّ بكماء ! ويكفيها الظلام والصمت !

وتواصلت الدروس .. وتساقطت العثرات .. وحقّقت أمنيتها في تعلّم النطق .. ولم تعدْ بَكماء !

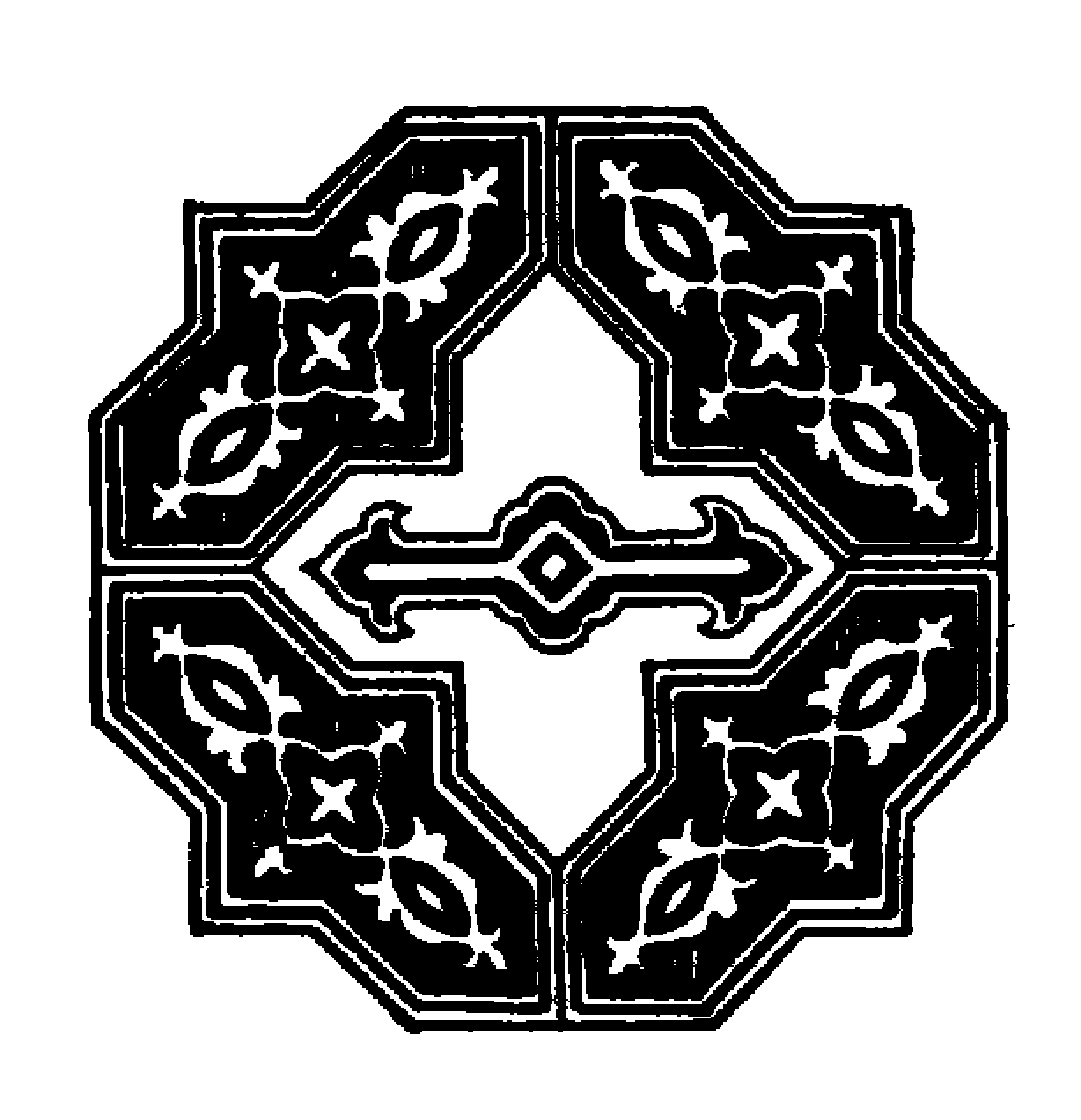
إنّ جهادها أثمر ، وأعطتْ ثماره كلّ ما تشتهيه الأوراق الخضراء المنتظرة موسمَ القطاف .. تستطيع الآن أن تُفهمَ العالم ما تريد ، وأن تَفهمَ ما يريد هذا العالم منها !

ولننقل هنا ما ظنّتْ أنها فكّرتْ في كتابته في مذكراتها عن ذلك ، حيث تقول :

« كان يحفزني الأمل على مواصلة الجهاد ، وكثيراً ما كنت

أردّد في داخل نفسي وبفرح كبير: لست بكماء الآن! حتى أختي الصغيرة سوف تفهمني كما كنت أفكّر بمتعة التحدُّث إلى والدتي وقراءة أجوبتها من شفتيها».

لقد غيَّرتْ الآن من طريقة مخاطبتها للنـــاس، فصارت تتكلم معهم بدلَ أن تتهجّأ الكلامَ بأصابعها..

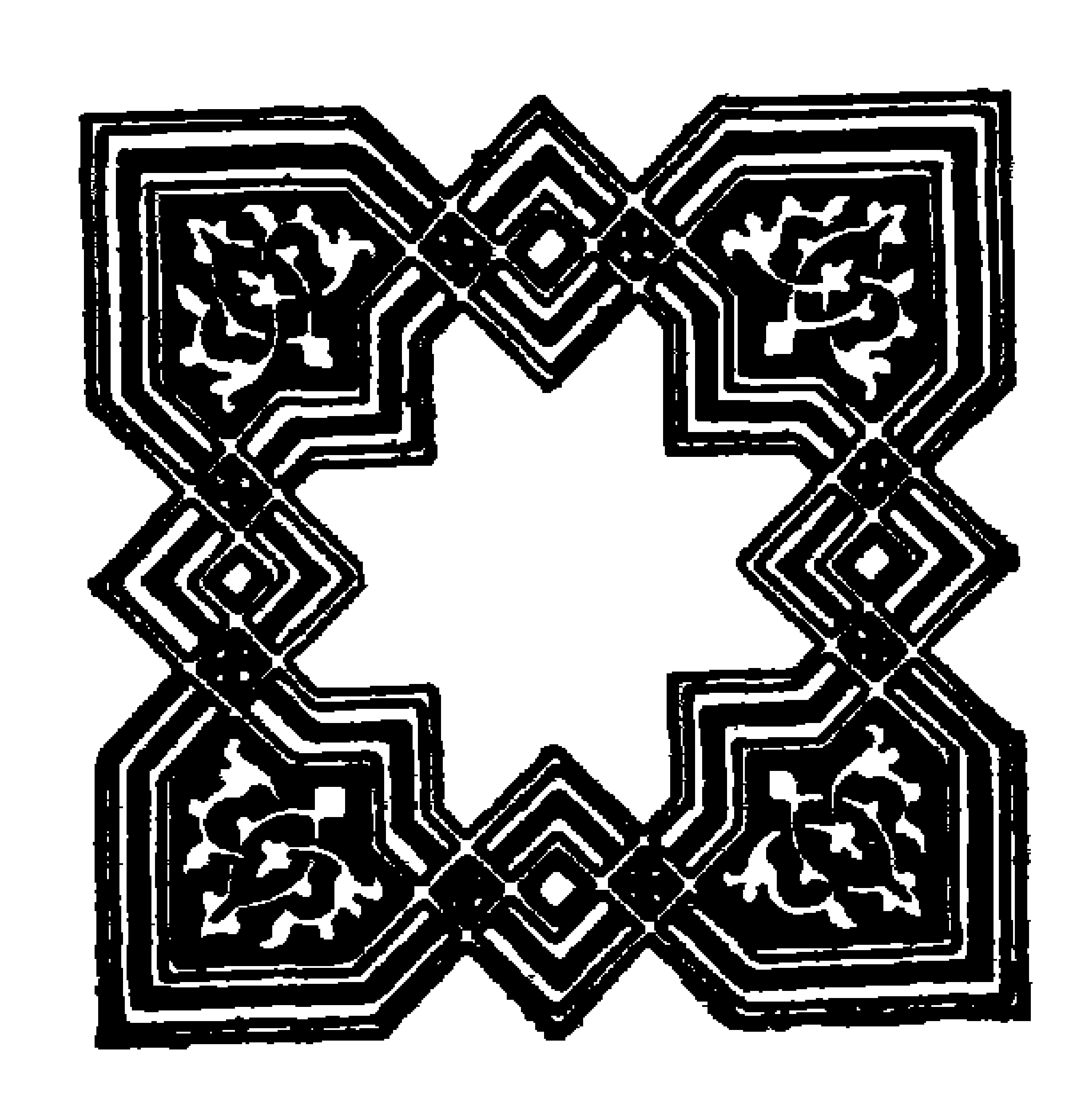


العودة إلى البيت :

وما أن انتهتْ هيلين من تعلّم النطق ، حتى عاودها الحنين والشوق إلى بيت والدَيها . لقد نام هذا الحنين وهذا الشوق على صدر رغباتها في التعلّم والنطق ، وها هو يستيقظُ ثانية على رغبة العودة والأحلام الطائرة في مفاجأة الأهل والأصدقاء بواقعها الجديد الذي لا شك بأنه سيُسرُّهم ويُبهجهم كما أسرَّها وأبهجها ..

وكم كانت سعيدةً وهي في طريق عودتها إلى الأهل والبيت .. لقد امتلأتْ عيناها بدموع الفرح وهي بين أحضان والدتها وقبلات جميع أفراد العائلة .. لم يخفِ الجميعُ فرحتَهم بعودتها ، وقد عبَّروا عن هذا ، ولا سيما والدتها ، بالدموع الحرّى .. والبكاء الصامت .. حتى أختها الصغيرة ميلدرد فقد أخذتْ بيديها لتغمرهما بالقبلات ثم ترقص طرباً ..

إنها لحظةُ اللقاء للعائد المنتصر في معركة النطق والكلام .. لقاء الأحبّة ولقاء القلوب .. لقاء الأهل بطفلتهم التي ذهبتْ شيئاً وعادت إليهم شــيئاً آخر .. ودَّعتهم لا تتكلم ، واستقبلتهم بالكلام.. فوداعاً للإشارات.. ومرحى للصوت والعهد الجديد.



التجربة المحزنة في تأليف القصص:

في عامها الثاني عشر ، أي في عام ١٨٩٢ ، كتبت هيلين قصة أطلقت عليها اسم « ملك الجليد » وأرسلتْ بها إلى السيد « انينوس » في مدرسة « بركنز للعميان » . وكانت تطمح في أن تتلقّى الثناء والتقدير على عملها هذا ، سيما وأنه باكورة إنتاجها الأول بعد النطق .. ولكن هذا لم يحدث ! وبدلاً منه فقد أثار لها كثيراً من المتاعب والأحزان .. وسبّبَ لها مشكلةً ظلّتْ آثارُها عالقة في ذهنها فترة طويلة من الوقت . فقد جاءتْ هذه القصة مطابقةً تماماً لقصة أخرى في أحد الكتب اسمها « جنّيات الجليد » . وكانت القصتان متشابهتين في الفكرة واللغة ..

ومما زاد في تعقيد الأمور أنّ قصةَ « جنيات الجليد » قد ظهرت قبل ولادتها ، وهذا ما يؤكد أن قصتها مسروقة .. يا لخجلها وعارها، إنها كانت ترمي من وراء ذلك السرورَ والبهجة

عندما أرسلتْ هذه القصة إلى السيد « انينوس » في مناسبه عيد ميلاده ، ولم تكن تنتظر أن تُجازى على هذا النحو القاسي على هديَّتها . بل جُلّ ما كانت تبغيه هو الحصولُ على عبارات الثناء والتقدير لأوّل عمل لها في دنيا التأليف وكتابة القصص ..

كلمة شكر تزيد من اعتزازها بما وصلتْ إليه ، وترفع من معنوياتها لتمضي قُدُماً في طريق الفلاح والنجاح.. ولكن ما كل ما يتمنّى المرء يُدركه .. لقد أجمع الجميع على أن قصتها هذه مسروقة، وليست هي بصاحبة الفكرة أو القلم ! وباستثناء معلمتها سوليفان التي وقفت إلى جانبها في هذه المحنة العصيبة ، فكافحت وناضلت معها لإقناع السيد انينوس بأنّ القصة هي قصتها ، وقد يكون هذا التشابه في القصتين نتيجة توارد أفكار ليس إلا ، فقد ظلّ الجميع على رأيهم في التجنّي والاتهام ..

لقد أذهلها هذا الاتهام وكاد يُذهبُ بعقلها ، بل وبحياتها ، لكثرة ما تراكم في نفسها من أحزان وأسى .. فهي لم تذكر أنها قد قرأت أو سمعت قصة « جنيات الجليد » حتى تتأثر بها وتنقل

أفكارها إلى قصتها « ملك الجليد » .. وكل ما في الأمر أن معلمتها سوليفان كانت يوماً تصف لها جمال الأشجار في الخريف، فأعاد هذا الوصف إلى ذاكرتها قصة أخرى ربما كانت قرأتها لها فيما مضى ، فحفظتْها في الذاكرة بطريقة لاشعورية ، وجلستْ تكتب قصتَها هذه ..

لقد حاولت هيلين وهي في بوسطن أن تقنعَ السيد انينوس بأنها هي التي كتبتْ القصة لا أحد غيرها . وأنها لم تأخذ قصتها عن أيَّة قصة أخرى ، لا سيما هذه القصة التي تشابهت مع قصتها.. ولقد حاول السيد انينوس في بداية الأمر أن يصدِّق كلامها ، ولكنه فشل في هذا ، فقد كانت تبدو عليه إمارات الغضب والاضطراب ..

حتى في الليلة التي سبقت الاحتفال بذكرى مولد واشنطن حيث كانت ستشترك في تمثيلية للفتيات العميان ، سألتها إحدى المدرسات عن « ملك الجليد » فأخذت تروي لها ما كانت معلمتها سوليفان قد حدّثتها عن جاك فروست وأعماله العظيمة .

وهنا أكّدتْ لها هذه المعلمة بأنّ ما ترويه هو قصة « جنيات الجليد » ، وأخبرت السيد انينوس بذلك .

وفشلت هيلين مرةأخرى في إقناع السيد انينوس ببراءتها، فقد ظلّ على موقفه هذا لاعتقاده بأنه قد خُدِع . بل ذهب إلى أبعد من ذلك حين وجّه شكوكه نحو « سوليفان » ونزاهتها ، معتبراً إياها شريكة مع هيلين في الخديعة لاكتساب احترامه .

وبدأ فصلٌ آخر من فصول هذه المشكلة المأساة التي خلقتْها كتابة القصة . فقد حاول القضاة الذين قُدِّمتْ إليهم لمحاكمتها عبرَ مجلس الأساتذة في مدرسة العميان ، إجبارها على الاعتراف بما لم تَقترفْ أو تُذنبْ ، وأنّ قصةَ « جنيات الجليد » قد قُرِئت أمامها من قبل ولو مرة واحدة .

لقد صفعها هذا الشك صفعةً لم تعدْ قادرة بعدها على النطق والكلام ! لقد ظلّت في هذه الليلة التي أعقبتْ المحاكمة ساهرةً تفكّر وتبكي .. وها هي الآن تتذكّر شيئاً في رقادها . فمنذ أربع سنوات قرأت لها إحدى صديقاتها بعض الكتب ، ومنها

كتاب « بردي وأصدقاؤه » الذي جاء فيه قصة «جنيات الجليد»
إذن لا بدّ أنها قد قرأت لها هذه القصة .

لقد ترك أثر هذه المشكلة انطباعاً سيّئاً في نفس هيلين .
فهي لم تعدْ واثقةً بما تكتب . حتى أنها حين كانت تكتب رسالة
إلى والدتها كانت تعيد قراءتها كي تتأكّد من عدم مطالعتها لمثل
هذه العبارات في الكتب . ورغم تسلّمها عدة رسائل مشجّعة من
أصدقائها ، ومنها رسالة لصاحبة « جنيات الجليد » حيث تقول:
« سوف تكتبين قصصاً عظيمة ذات يوم ، وستصبح هذه
القصص سلوى ومساعدة للكثيرين » ، فإنها ظلّت فاقدة الثقة
بما تكتب لفترة طويلة من الوقت .

... وأخيراً عادتْ هيلين إلى الكتابة . وكان لمعلمتها
سوليفان دور بارز وفضل كبير في إعادة الثقة إلى نفسها المنهارة.
إنها الآن تسلكُ طريقاً آخر في الكتابة والتعبير بشكل لايجعلها
تقع في الخطأ الذي وقعت فيه أوّلَ مرة عن غير قصد .

مدرسة الصم
وفاة والد هيلين
مدرسة كامبردج للبنات
الخروج من كامبردج

مدرســـة الصـــم :

قبل الحديث عن انتقـال هيلين إلى مدرسة الصم في مدينـة نيويورك ، لا بدَّ من الإشارة بشكل موجز إلى الرحلة الـــتي قامت بهـا مع معلمتها سوليفان إلى نياغارا ، وزيارة المعرض الدولي في واشنطن ..

ففي شهر آذار من عـام ١٨٩٣ ، زارت هيلين برفقـة مس سوليفان شلالات نياجارا ، ونعِمتْ برؤية عجائبها عن طريـق الوصف الذي كانت تصفه لها سوليفان .

وفي زيارتها للمعرض الدولي ، تحوّلت تخيّلاتها إلى حقيقـة ملموسة . فقـد رأتْ عجائب الدنيا الـتي سمعتْ عنها وهي تبدو أمامها من خلال الآثار والرسوم . فهناك كانت الهنـد وأفيالها .. ومصر مع مبانيها الأثرية والشوارع والجمال .. واستعادت قصة

كريستوفر كولمبوس مع بحارته الأشرار الذين كانوا يخططون لاغتياله على ظهر سفينته التي ترى الآن صورة طبق الأصل عنها!

وها هي تعود إلى البيت بنفس مُنتعشة وروح مشرقة لتبدأ البحث من جديد في أمر استكمالها لتعلم النطق وقراءة الشفاه .. ووقع الاختيار على مدرسة خاصة للصم في مدينة نيويورك. وفي صيف عام ١٨٩٤ سافرت هيلين إلى هذه المدرسة ، وقضت فيها سنتين تمكّنتْ خلالهما من دراسة علم الحساب ، والجغرافيا ، واللغة الفرنسية وبعض الألمانية .

وهناك أبدتْ معلماتها اهتماماً خاصاً بها . ولكن استجابتها لرغباتهن وآمالهن في سرعة التعلم كان يتفاوت من معلمة لأخرى . فمدرّسة الألمانية كانت قادرة على استخدام الأحرف الهجائية اليدوية، وهذا ما ساعدها على تكلم الألمانية وفهم حديث معلمتها خلال شهور قصيرة . أما مدرّسة اللغة الفرنسية فقد كانت تجهل طريقة استخدام الأحرف الهجائية اليدوية ، ولم يكن بإمكانها

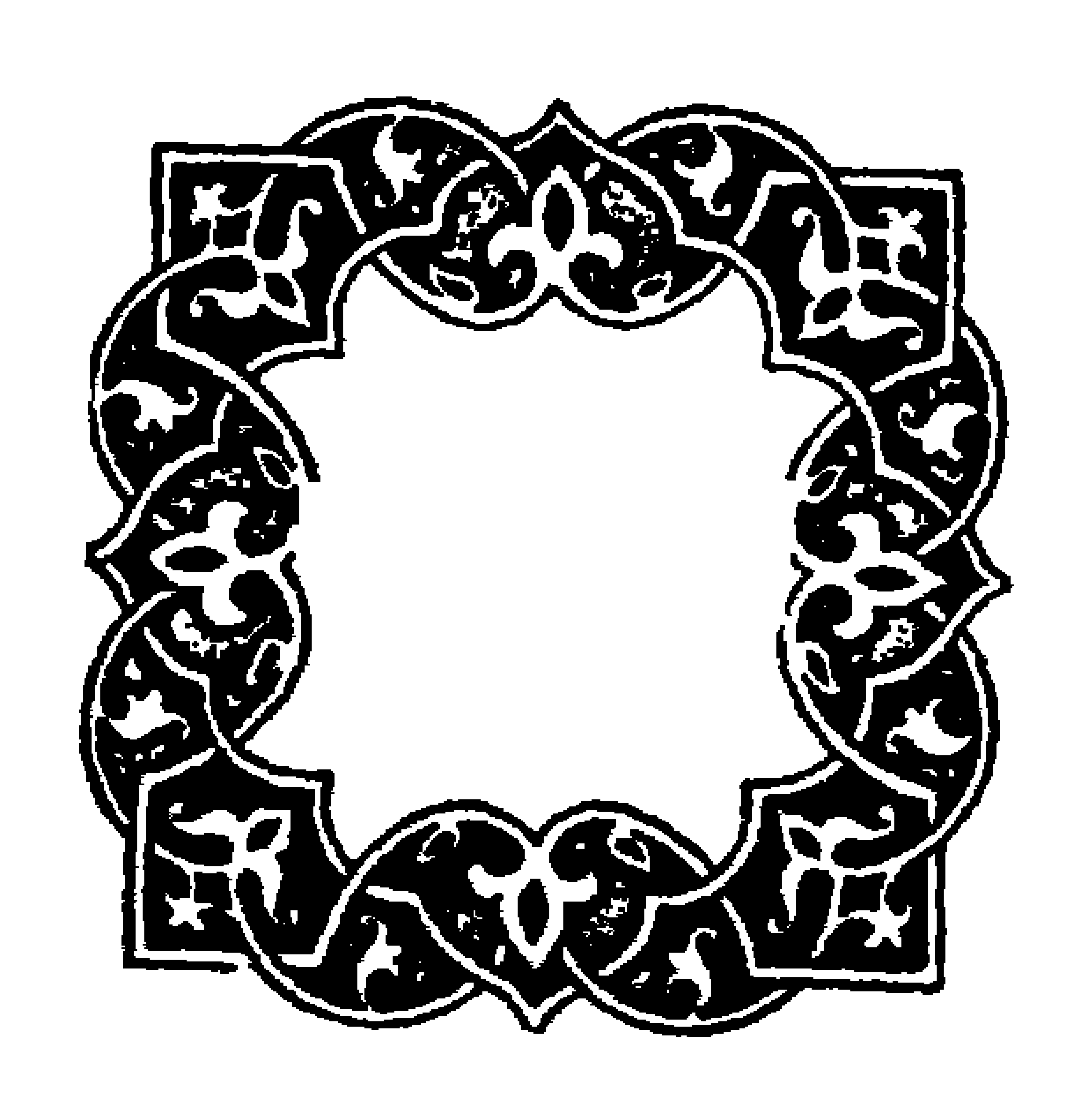
قراءة شفتيها بسهولة ، ولذا ، فقد فشلت في دروسها وواصلتها ببطء .

وأكثر ما استمتعتْ به هيلين من المواد « الجغرافيا » . ولا شك بأنّ العامل النفسي لديها في البحث عن أسرار الطبيعة قد ساعدها على فهم هذه المادة ، وولّدَ في نفسها الحماس والانتصار لها على غيرها من المواد الأخرى .. إنها ترى العالم من خلال هذه المادة ! وهل هي بحاجة إلى أكثر من ذلك ؟

لقد قضت سنوات سعيدة في نيويورك ، قَضتْها في الدرس ومع الطبيعة والنزهات .. إنها الحياة التي تألف وتُحِب .. وما أجملها من حياة بين رفاق يُعانون ما تعاني من ظلم الحياة والقدر .

ولكن .. هل يمكن أن تستمرّ الحياة على هذا النحو من وجهها المشرق المضيء ؟ ولا يترك الإنسان مكاناً شَهِدَ فيه أوجُه السعادة والسرور والذكريات الجميلة ، دون أن تديرَ له الحياةُ وجهها الآخر من الأحزان والمآسي لتترك بصمات وذكريات أليمة تطغي على هذا الفرح !

فقبل أن تغادرَ هيلين نيويورك ، توفيَ السيد « سبولدنج » الذي كان كريماً جداً معها ومع سوليفان ، وكوّن معهما صداقة يُعتزُّ بها ، حتى باتا يشعران بأهميـــة وجوده إلى جانبهما .. آه ما أقسى القدر ! لقد سلَبَ منهما عزيزاً وترك لهما فراغاً لا يمكن ملؤه بسهولة !



وفاة والد هيلين :

يا لله ، ويا لَعجب الأقدار ! فكأنما المصيبة التي حلّت بهيلين لم تكن كافية لملء قلبها الصغير بالأحزان والأشجان ، حتى أعدّت لها مصيبة أكبر وأعظم !

لقد مات والدها .. مات وهي في بلاد الغربة . مات مَن كان يتألم لأجلها ، ومات معه الألم .. أما هي فقد كادت تموت من الألم .. من الحزن .. من الأسى .. فما أصعبَ أن يفقدَ الإنسان عزيزاً غالياً ، وإلى الأبد ! كان مرضه قصيراً ، وموته سريعاً ! ليتها كانت هناك لتودعه .. ليتها كانت بقربه لتقبّل الأمل الراحل في السفر الطويل ! إنها لن تراه بعد ، ولن تسمع صوته وقصصه المسلّية .. لن تشعر بدفء قلبه بعد اليوم ، وقد توقّف هذا القلب عن الحركة ! إنه الحنان الراحل .. « فوداعاً من بعيد .. متّ فاسترحتَ ، وبقيتُ أنا ميّتة الأحياء ! » .

مدرسة كامبردج للبنات :

وبقيتْ هيلين فترة طويلة مذهولةً بوقع الصدمات التي توالت عليها ، إلى أن دخلتْ مدرسة كامبردج للبنات ، ورافقتها معلمتها سوليفان لتساعدها في التحضير والاستعداد لدخول الجامعة .. والواقع أن سوليفان كانت تحضرُ معها الدروس ثم تلقِّنها إياها بعد الانتهاء . لقد واجهتْ صعوبةً كبيرة في هذه المدرسة ، فالمدرِّسات لم تكن لديهن خبرة كافية في التعامل مع أمثالها من العميان . والمدرسة هي مدرسة « المبصرات » و « السامعات » .

... وأخيراً تغلّبتْ هيلين على العراقيل الكثيرة التي واجهتْها في هذه المدرسة ، وتمكّنتْ بفعل إصرارها ونشاطها ومساعدة معلمتها سوليفان على تحسين معرفتها بعلم الصّرف والنحو في اللغة اللاتينية ، وأنهتْ دراسة الحساب ، وقرأتْ روايات

« شكسبير » وبعض الكتب الأخرى المعروفة ..

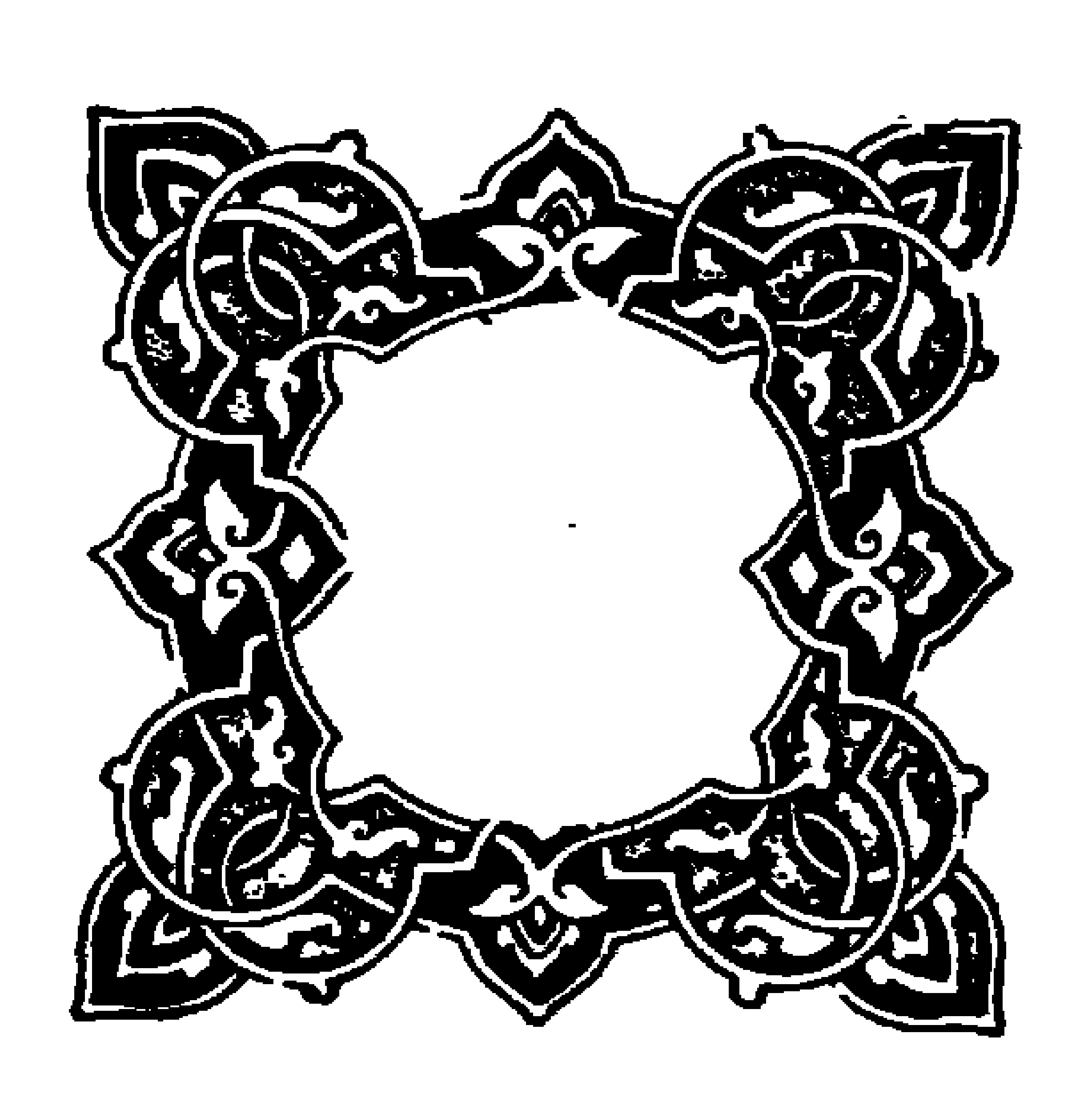
في كامبردج تعرَّفتْ على عدد كبير من زميلاتها «المبصرات» و «السامعات » وتمتّعتْ برفقتهن ، حتى أنهـــا نزلت ضيفةً على إحداهن في بيتها الجميل القريب من الكلية ، وسعدتْ بحيـــاةٍ منزلية حقيقية .

وعندما جاءتْ والدتها وشقيقتها الصغيرة لقضاء عطلة عيد الميلاد معها ، استبقت ميلدرد معها ستة أشهر بعد أن سُمح لها بالدراسة هناك .

وجاءت الامتحانات ، وقـدّمتْ امتحانـاً في الألمانيـــة والافرنسية واللاتينية والانكليزية واليونانية ، وتاريخ الرومان . ونجحتْ في جميع هـذه المواد ، ونالتْ أوسمةً في مادّتي الألمانيـة والانكليزية .

وانتقلتْ إلى السنة الثانيـــة ، وفي نفسها أمل وتصميم على النجاح . وكانت هذه السـنة مخصَّصة بمعظمهـا لدراسات العلوم :

الرياضيات ، والفلك ، إضافة إلى اليونانية واللاتينية .. كان الصف مزدحماً جداً ، وكان عليها أن تكتبَ الرياضيات في الصف ، وأن تجيبَ عن أسئلة العلوم.. وطبعاً لم يكن بمقدورها أن تفعل ذلك، فهي لا ترى أرقام الرياضيات على اللوح الأسود. فاشترت آلة كاتبة بطريقة « بريـــل » ، وكانت تصنع الأسلاك المستطيلة والمثنّاة لتأخذ فكرة عن الأرقام الـــتي تُكتب على اللوح .



الخروج من كامبردج :

سارت الأمور على ما يرام ، وبدأتْ هيلين تتخطّى جميع العقبات التي اعترضتْ سُبُلَ تقدُّمِها في الدراسة . وكان من الممكن أن تواصلَ سيرها على هذه الطريق ، لولا أن وقعتْ لها حادثةٌ أدّت إلى خروجها من كامبردج ومُتابعة دراستها في بوسطن بإشراف السيد « كيث » .

فقد احتجَّ مدير المدرسة في كامبردج على أنها كانت تعمل بإرهاق . ونقل احتجاجه هذا إلى المس سوليفان أكثر من مرة ، مُبدياً قلقه إزاء هذا الارهاق . وقرَّر أن يُطيلَ فترة دراستها إلى خمس سنوات قبل دخول الجامعة . وكان مهَّد لهذا القرار بتخفيض عدد الحصص التي تتلقّاها . فأزعجها هذا القرار . ولكنه عاد عنه حين أثبتتْ نجاحها في السنة الأولى .

ومرة أخرى أعلن المدير بأنّ هيلين تعمل كثيراً ، وهي

مرتبكة في دروسها ويجب عليها البقاء في المدرسة مدة ثلاث سنوات أخرى . وأصرّ على موقفه هذا حين مَرِضتْ في ذات يوم وغابت عن المدرسة . فحصل خلاف بينه وبين معلمتها سوليفان ، الأمر الذي دفع والدتها إلى إخراجها من كامبردج .

وبعد بعض الوقت عُهِدَ إلى السيد « كيث » بتعليمها الرياضيات واليونانية واللاتينية . وهكذا تمكّنتْ من متابعة دراستها والاستعداد لدخول الجامعة بشكل جيّد .

وتقدّمتْ من امتحانات الدخول إلى جامعة « رادكليف » . ورغم أنّ هذه الامتحانات كانت صعبة جداً ، فقد تمكّنتْ من النجاح . وبدأتْ مرحلة الاستعداد لدخول الجامعة ، غير أنها آثرت أن تُمضي سنة أخرى في الدراسة التحضيرية تحت إشراف « كيث » .

■

الدخول إلى الجامعة :

الدخول إلى الجامعة :

وفي خريف عام ١٩٠٠ تحقّق أمل هيلين بالدخول إلى الجامعة بعد أن عاشت هذا الحلم طويلاً ، وانتظرته لسنوات عديدة . وأقبلتْ في أيامها الأولى على الدرس بشغف ولهفة .. وبدتْ لها الحياة هنا جميلةً ورائعةً بأسرار العلم والمعرفة .. وهي تريد أن تقتحمَ هذا السورَ العالي ، وأن تزيّنَ عقلَها من حدائق أزهاره وورودِه .

ولكنها اكتشفت فيما بعد أنّ ما حملته في فكرها من تصوُّر وأحلام نحو الجامعة كان غيرَ الحقيقة التي تراها الآن . فالجامعة لم تكن ـ كما اعتقدت ـ هي المكان الرائع .. وقارنتْ بين الماضي في المدرسة وبين الحاضر في الجامعة ، فوجدت أنّ الفرقَ كبير وشاسع .. وأنّ ما يواسي الجامعي هو اعتقاده بادّخار الكنوز في الحاضر من أجل صيانة المستقبل .. هكذا هي بدأتْ تواسي نفسها بعد أن صُدِمتْ بهذا الواقع !

ولأول مرة في حياتها الدراسية ، بدأتْ هيلين تعاني الوحدة . فهي وحيدة في الصف .. ووحيدة في البيت .. لم يعد أحد يأخذ بيدها إلى منابع النور .. فهي لم تعدْ تذكر شيئاً عن معلمتها سوليفان .. لا بدَّ أنها رحلت بعد أن قدّمتْ لها ما تستطيع من روحها وفؤادها ..

ومع هذا فهي لم تكن دائماً وحيدة في كفاحها . فقد وقف إلى جانبها عددٌ من العاملين المتخصّصين في شؤون العميان ، وقدّموا لها الكثير من الكتب التي كانت تحتاجها بحروف نافرة، ونجحتْ بفضل مساعدتهم في السنة الأولى . وتواصلُ المسيرةَ وتنجح في السنة الثانية ، فالثالثة التي وصفتْها بأسعد السنوات الجامعية . وتأتي الامتحانات النهائية والأخيرة فتنجح وتتخرّج.

ويبدأ فصل جديد من معاركها القاسية الطويلة مع الحياة حتى كتابة هذه السطور !

الخلاصة.. تحليل وتعليق :

الخلاصة .. تحليل وتعليق :

« هيلين كيلر » عاشتْ حياة الظلام والسكون بعد ولادتها بعامين (١٨٨٠) وسط والدَين كريمين في بيت متواضع صغير في « تسكمبيا » .

تميَّزتْ شخصيتها منذ الصغر بالذكاء والفطنة ورجاحة العقل .. وكانت مرهفة الشعور ، شديدة الاحساس .. تتألم وتبكي عند الحادثات .. مهما كانت !.. وهذا يدلُّ على أنها إنسانة خُلِقتْ من عجينة خاصة يفوحُ منها عبيرُ الانسانية الرحماء ..

ظلّتْ أسيرةَ البيت والجدران فترةً طويلة من الوقت قبل أن تأتيَ إليها المعلمة سوليفان لتأخذ بيدها إلى منابع النور والحياة .. فقد كانت تُحبُّ الناسَ والخروجَ إليهم والجلوسَ معهم في بيتها، ولكنها شعرتْ بسخريتهم منها عندما كانت تفعل

شيئاً لا يفعله « المبصرون » و « السامعون » .. وهي بالتـــالي لا تستطيعُ أن تتكلم إليهم، فتُسمعهم صوتها بما يجول في خاطرها وما تريد التعبير عنه .. فالاشارات وحدها كانت غير كافيـة .. بل كانت أحياناً مبعثاً على الاستهزاء !

لم يكن لها رفيق سوى ابنة الطباخ عندهم وكلب الصيد .. كانت ترتاحُ لمعاشرتهما وقضاء بعضِ الوقت معهما في الحديقـة أو البيت ..

كان والداها يقدّمان لها كلّ الحبّ والحنـان .. وأمام هذا كانت تنسى بعض الألم الذي خيّم على حياة الظلام والصمت الـتي كانت تعيشها .. ولم تشعر يوماً بضآلة هذا العطف والحنـو ، إلا حينما أطلّتْ شقيقتها المولودة الجديدة « ميـلدرد » على البيت . هنا أحسَّتْ بالغيرة الشـديدة من هذا القـادم الجديد الذي جاء يشاركُها بـل يسلُبها العطف والدلال .. وكادت يوماً تقضي على هذا « الدخيل » !

وجاءتْ معلمتُها الآنسة سوليفان لتعوِّض هذا الحنان الضائع بعض الشيء ، ولتفتح أمامَها صفحةً مشرقةً من الحياة والأمل . وتبدأ معها مشوارَ العلم من أول الطريق . وما أن تنتهي من دراسة البيت وتجيد القراءة والكتابة عن طريق الرموز والاشارات ، حتى تبدأ في البحث عن وسيلة تتعلم بها النطق .. وتذهبُ بها معلمتها إلى إحدى المدارس الخاصة بهذا في بوسطن .. وتتعلم وتنجح .. وتفكُّ قيداً آخر من قيود القدر ..

لقد أصبحتْ تعرف الآن كيف تَقرأ، وكيف تكتب.. وكيف تخاطبُ الناس . وفي أحضان الطبيعة كان لها حظٌّ وافرٌ من ارتشاف المعرفة ، وإدراك الحقائق المعنوية الكبيرة .. فالطبيعة هي المعلم الأكبر للانسان الباحث عن العلم واختراق حُجُبِ المعرفة ، وما يُحيطُ بالكون من أسرار !

وعندما نَمَتْ موهبتُها الفكريّة ، واشتدَّ عودُ ثقافتِها ،

وتفتَّحت أزهار عقلها ، سافرت مع معلمتها سوليفان قاصدةً أحد المعاهد الخاصة بالعميان في نيويورك لتبدأ في التحضير والاستعداد لدخول الجامعة ..

ورغم المصاعب والمشاكل التي حدثت لها في مدرسة كامبردج في نيويورك ، والتي أدّت إلى تركها هذه المدرسة ومتابعة التحصيل على يد أستاذ خاص .. ورغم النوائب والمصائب والأحزان التي رُزِئت بها هناك ، كوفاة والدها وأستاذها اللطيف معها جداً السيد سبولدنج ، فقد تمكّنت من النجاح ودخول جامعة رادكليف .. وانتصبت هامتها أطول فأطول عندما وجدت نفسها على مقاعد الدراسة في الجامعة ..

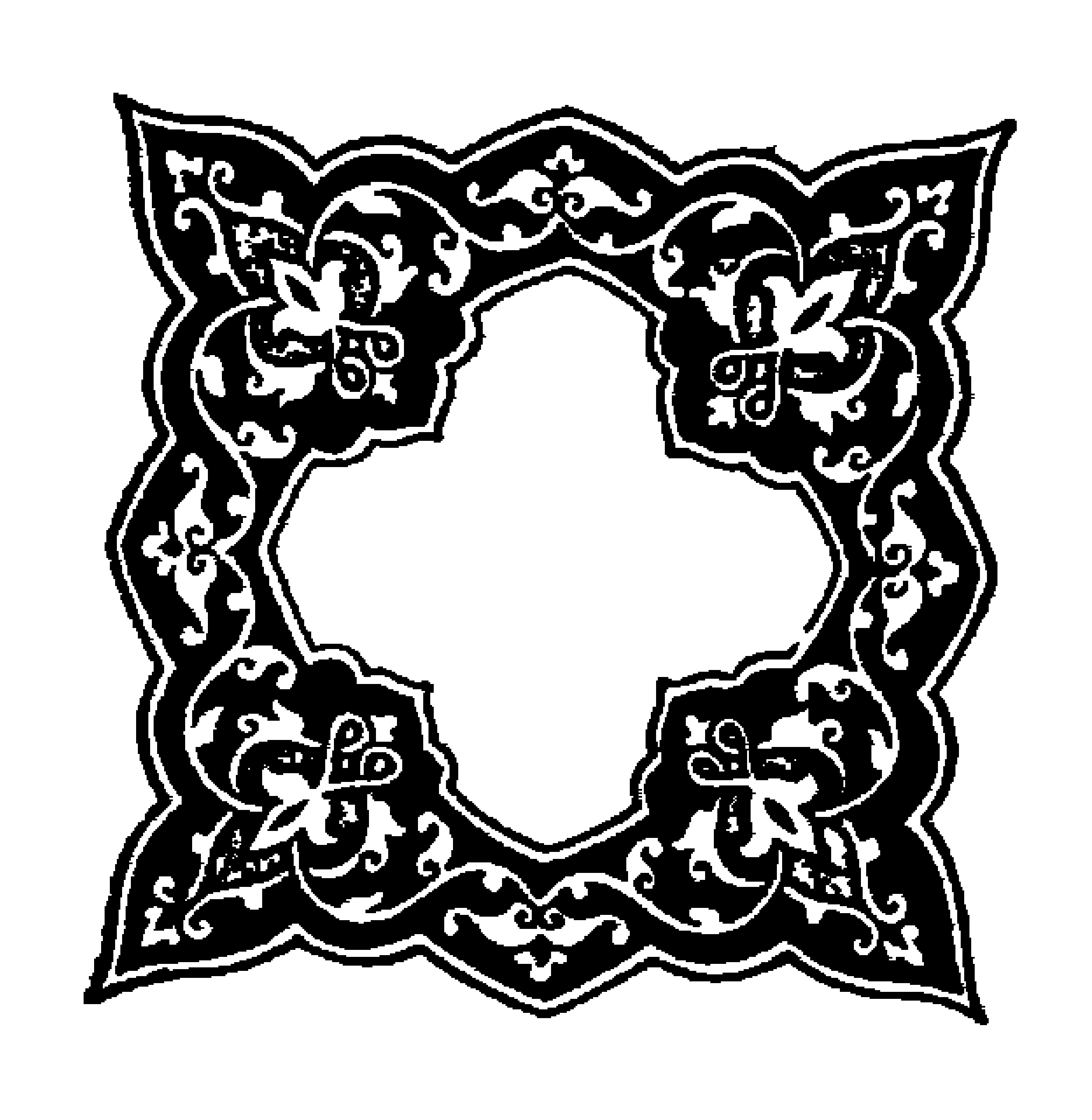
وتمضي في دراستها الجامعية وسط سَيل من المصاعب والعقبات وحيدةً غريبة .. ولكنها تقاوم .. وتنتصر !

هذه هي قصة المرأة المعجزة هيلين كيلر التي أرادتِ الحياةُ أن تقهرَها ، فقهرتِ الحياة ..

إنها قصةُ العزيمة والإرادة عنـد إنسان الصمود في مواجهة اليأس والانتصار عليه !

وحريٌّ بـك أيها القارىء العزيز أن تأخذ مـن هذه القصة العظة والعبرة في دروب السير على طريق الحياة ..





طبع على مطابع دار الشمال الإخـراج : م .جمال الصوفي

عظماء التاريخ



أحباءنا عظماء المستقبل ...

لئلا تنقطع سلسلة عظماء التاريخ .. فتضيع حلقة من سير الكبار الذين قادوا أممهم إلى النصر، وبنوا الأمجاد وكانوا مشاعل نور ... نذرنا على أنفسنا أن نقدم لكم في كل كتاب من هذه السلسلة الممتعة الشيقة شخصية إنسانية فذّة، من مختلف الأمم والشعوب، لأن العظام ليسوا ملك شعب أو جنس، بل هم نبراس علم وسُلّم حضارة وقدوة حسنة للبشرية جمعاء.

دار الشمال للطباعة والنشر والتوزيع